سورة الشورى

مكية [إلا الآيات ٢٣ و٢٤ و٢٥ و٢٧ فمدنية]
وآياتها ٥٣ [نزلت بعد سورة فصلت]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ عسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ/ ٢/ ١٦١أ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ السَّمَٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾

قرأ ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما «حم سق». ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ﴾ أي مثل ذلك الوحي. أو مثل ذلك الكتاب يوحي إليك وإلى الرسل ﴿مِن قَبْلِكَ اللَّهُ﴾ يعني أن ما تضمنته هذه السورة من المعاني قد أوحى الله إليك مثله في غيرها من السور، وأوحاه من قبلك إلى رسله، على معنى: أن الله تعالى كرر هذه المعاني في القرآن في جميع الكتب السماوية؛ لما فيها من التنبيه البليغ واللطف العظيم لعباده من الأوّلين والآخرين، ولم يقل: أوحي إليك؛ ولكن على لفظ المضارع؛ ليدل على أن إيحاء مثله عادته. وقرئ: «يوحى إليك» على البناء للمفعول. فإن قلت: فما رافع اسم الله على هذه القراءة؟ قلت: ما دلّ عليه يوحي، كأن قائلاً قال: من الموحي؟ فقيل: الله، كقراءة السلمي: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧] على البناء للمفعول ورفع شركائهم، على معنى: زينه لهم شركاؤهم. فإن قلت: فما رافعه فيمن قرأ نوحي بالنون؟ قلت: يرتفع بالابتداء. والعزيز وما بعده: أخبار، أو العزيز الحكيم: صفتان؛ والظرف خبر. قرئ: «تكاد» بالتاء والياء. وينفطرن، ويتفطرن. وروى يونس عن أبي عمرو قراءة غريبة «تتفطرن» بتاءين مع النون، ونظيرها حرف نادر، روي في نوادر ابن الأعرابي: الإبل تشممن[1]. ومعناه: يكدن ينفطرن من علو شأن الله وعظمته، يدل عليه

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: والظاهر أنَّ هذا وَهَمٌ منه؛ لأنَّ ابنَ خالويه قال في شاذ القرآن ما =

مجيئه بعد العلي العظيم. وقيل: من دعائهم له ولداً، كقوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ [مريم: ٩٠]. فإن قلت: لم قال: ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾؟ قلت: لأن أعظم الآيات وأدلها على الجلال والعظمة: فوق السمٰوات، وهي: العرش، والكرسي، وصفوف الملائكة المرتجة بالتسبيح والتقديس حول العرش، وما لا يعلم كنهه إلا الله تعالى من آثار ملكوته العظمى؛ فلذلك قال: ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أي يبتدىء الانفطار من جهتهن الفوقانية. أو: لأن كلمة الكفر جاءت من الذين تحت السمٰوات، فكان القياس أن يقال: ينفطرن من تحتهن من الجهة التي جاءت منها الكلمة، ولكنه بولغ في ذلك، فجعلت مؤثرة في جهة الفوق، كأنه قيل: يكدن ينفطرن من الجهة التي فوقهن دون الجهة التي تحتهن، ونظيره في المبالغة قوله عزّ وعلا: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ﴾ [الحج: ١٩ ـ ٢٠] فجعل الحميم مؤثراً في أجزائهم الباطنة. وقيل: من فوقهن: من فوق الأرضين. فإن قلت: كيف صح أن يستغفروا لمن في الأرض وفيهم الكفار أعداء الله؟ وقد قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البقرة: ١٦١] فكيف يكونون لاعنين مستغفرين لهم؟ قلت: قوله: ﴿لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يدل على جنس أهل الأرض، وهذه الجنسية قائمة في كلهم وفي بعضهم؛ فيجوز أن يراد به هذا وهذا. وقد دل الدليل على أن الملائكة لا يستغفرون إلا لأولياء الله وهم المؤمنون، فما أراد الله إلا إياهم. ألا ترى إلى قوله تعالى في سورة المؤمن: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧] وحكايته عنهم ﴿فَٱغْفِرْ

= نصُّهُ: تَنْفَطِرْنَ بالتّاء والنون يونس عن أبي عمرو. وقال ابن خالويه: وهذا حرف نادر؛ لأنَّ العربَ لا تجمع بين عَلاَمَتَيْ تأنيث لا يقال: النساءُ تَقُمْنَ ولكن يَقُمْنَ ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ﴾ ولا يقال: تُرْضِعْنَ، وقد كان أبو عمرو الزاهد روى في نوادرِ ابنِ الأعرابي الإبِلُ تَتَشَمَّمْنَ فأنكرناه، فقد قَوَّاه الآنَ هٰذا.

قال الشيخ: فإنْ كانت نسخ الزمخشري مُتَّفِقَةً على قوله بتاءين مع النون فهو وهم، وإن كان في بعضها بتاء مع النون كان موافقاً لقول ابن خالويه وكان بتاءين تحريفاً من النساخ، وكذلك كتبهم تَتَفَطَّرْنَ وَتَتَشَمَّمْنَ بتاءين. انتهى. قُلْتُ: كيفَ يستقيم أن يكون كَتْبُهم تَتَشَمَّمْنَ بتاءين وَهْمًا؛ وذلك لأنَّ ابن خالويه أَوْرَدَهُ في معرض الندرة والإنكار حتى تقوى عنده بهذه القراءة؟ وإنما يكون نادراً منكراً بتائين فإنه حينئذٍ يكون مضارعاً مسنداً لضمير الإبل فكان من حقه أن يكون حرف مضارعته ياء منقوطة من أسفل، نحو النساء يقمن فكان ينبغي أن يقال: الإبل يَتَشَمَّمْنَ بالياء من تحت ثم بالتاء من فوق، فمُا جاء بتاءين كلاهما من فوق ظهر ندورُه وإنكاره، ولو كان على ما قال الشيخُ: إنّ كتبهم بتاءين وَهْمًا بل كان ينبغي كَتْبُهُ بتاء واحدة. لما كان فيه شذْذٌ ولا إنكار لأنه نظير: النسوةُ تَدَخَرْجَنَ فإنه ماضٍ مسند لضمير الإناث، وكذا لو كُتِبَ بياء من تحت وتاء من فوق لم يكن فيه شُذُوذٌ وَلاَ إنكارٌ، وإنما يجيء الشذوذُ والإنكار إذا كان بتاءين منقوطتين من فوق؛ إنه سواءٌ قرئ: «تَتَفَطَّرْنَ» بتاءين أو بتاء ونون؛ فإنه نادرٌ لمّا ذكر ابنُ خالويه، وهذه القراءة لم يُقْرَأْ بها في نظيرها في سورة مريم. انتهى. الدر المصون.

لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ [غافر: ٧] كيف وصفوا المستغفر لهم بما يستوجب به الاستغفار فما تركوا للذين لم يتوبوا من المصدقين طمعاً في استغفارهم، فكيف للكفرة. ويحتمل أن يقصدوا بالاستغفار: طلب الحلم والغفران في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١] إلى أن قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤] وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦] والمراد: الحلم عنهم وأن لا يعالجهم بالانتقام فيكون عامًا. فإن قلت: قد فسرت قوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ بتفسيرين. فما وجه طباق ما بعده لهما؟ قلت: أما على أحدهما فكأنه قيل: تكاد السمٰوات يتفطرن هيبة من جلاله واحتشاماً من كبريائه، والملائكة الذين هم ملء السبع الطباق وحافون حول العرش صفوفاً بعد صفوف يداومون ـ خضوعاً لعظمته ـ على عبادته وتسبيحه وتحميده، ويستغفرون لمن في الأرض خوفاً عليهم من سطواته. وأما على الثاني: فكأنه قيل: يكدن ينفطرن من إقدام أهل الشرك على تلك الكلمة الشنعاء، والملائكة يوحدون الله وينزهونه عمّا لا يجوز عليه من الصفات التي يضيفها إليه الجاهلون به، حامدين له على ما أولاهم من ألطافه التي علم أنهم عندها يستعصمون، مختارين غير ملجئين، ويستغفرون لمؤمني أهل الأرض الذين تبرءوا من تلك الكلمة ومن أهلها. أو يطلبون إلى ربهم أن يحلم عن أهل الأرض ولا يعاجلهم بالعقاب مع وجود ذلك فيهم؛ لما عرفوا في ذلك من المصالح، وحرصاً على نجاة الخلق، وطمعاً في توبة الكفار والفساق منهم.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾﴾

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ جعلوا له شركاء وأنداداً ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ رقيب على أحوالهم وأعمالهم لا يفوته منها شيء وهو محاسبهم عليها ومعاقبهم ولا رقيب عليهم إلا هو وحده ﴿وَمَا أَنتَ﴾ يا محمد/ ٢/ ١٦١ب بموكل بهم ولا مفوض إليك أمرهم، ولا قسرهم على الإيمان. إنما أنت منذر فحسب.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾

ومثل ذلك ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ وذلك إشارة إلى معنى الآية قبلها: من أنّ الله تعالى هو الرقيب عليهم، وما أنت برقيب عليهم، ولكن نذير لهم؛ لأنّ هذا المعنى كرره الله في كتابه في مواضع جمة، والكاف مفعول به لأوحينا. و﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ حال من المفعول به، أي أوحيناه إليك وهو قرآن عربي بيّن، لا لبس فيه عليك؛ لتفهم ما يقال لك، ولا تتجاوز حدّ الإنذار. ويجوز أن يكون ذلك إشارة إلى مصدر ﴿أَوْحَيْنَا﴾، أي: ومثل ذلك الإيحاء البين المفهم أوحينا إليك قرآناً عربياً بلسانك ﴿لِّتُنذِرَ﴾ يقال: أنذرته كذا وأنذرته بكذا. وقد

عدى الأوّل، أعني: لتنذر أمّ القرى، إلى المفعول الأول والثاني وهو قوله وتنذر يوم الجمع إلى المفعول الثاني. ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ أهل أمّ القرى كقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]. ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من العرب. وقرئ «لينذر» بالياء والفعل للقرآن ﴿يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ يوم القيامة، لأنّ الخلائق تجمع فيه. قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٩] وقيل: يجمع بين الأرواح والأجساد. وقيل: يجمع بين كل عامل وعمله. و﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ اعتراض لا محل له[1]. قرئ «فريق» وفريق؛ بالرفع والنصب، فالرفع على: منهم فريق، ومنهم فريق. والضمير للمجموعين؛ لأن المعنى: يوم جمع الخلائق. والنصب على الحال منهم، أي: متفرّقين، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الروم: ١٤]. فإن قلت: كيف يكونون مجموعين متفرّقين في حالة واحدة؟ قلت: هم مجموعون في ذلك اليوم مع افتراقهم في داري البؤس والنعيم، كما يجتمع الناس يوم الجمعة متفرّقين في مسجدين. وإن أريد بالجمع: جمعهم في الموقف، فالتفرّق على معنى مشارفتهم للتفرّق.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾

﴿لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي مؤمنين كلهم على القسر والإكراه، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩] والدليل على أنّ المعنى هو الإلجاء إلى الإيمان. قوله: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩] وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ﴾ بإدخال همزة الإنكار على المكره دون فعله. دليل على أنّ الله وحده هو القادر على هذا الإكراه دون غيره. والمعنى: ولو شاء ربك مشيئة قدرة لقسرهم جميعاً على الإيمان[2]، ولكنه شاء مشيئة حكمة، فكلفهم وبنى أمرهم على ما يختارون؛ ليدخل المؤمنين في رحمته وهم المرادون بمن يشاء. ألا ترى إلى وضعهم في مقابلة الظالمين ويترك الظالمين بغير ولي ولا نصير في عذابه.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾﴾

---

(١) قوله: «لا محل له» لعله. لا محل له من الإعراب. (ع).

(٢) قوله: «لقسرهم جميعاً على الإيمان» هذا عند المعتزلة: أما عند أهل السنة، فالإرادة تستلزم وجود المراد، لكن لا تستلزم القسر والجبر للعباد؛ لأنها لا تنافي الاختيار، لما لهم في أعمالهم من الكسب. وإن كانت مخلوقة له تعالى. وأما التي لا تستلزم المراد وهي التي سماها مشيئة الحكمة، فهي التي بمعنى الأمر عند المعتزلة، ولا يثبتها أهل السنة، كما تقرر في التوحيد؛ فمعنى الآية: ولو شاء ربك إيمان الكل لآمن الكل، ولكن شاء إيمان البعض، فآمن من شاء إيمانه.

معنى الهمزة في ﴿أَمِ﴾ الإنكار، ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ هو الذي يجب أن يُتولَى وحده ويُعْتَقَد أنه المولى والسيد، فالفاء في قوله: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ جواب شرط مقدّر، كأنه قيل بعد إنكار كل ولي سواه: إن أرادوا وليًا بحق، فالله هو الولي بالحق، لا وليّ سواه. ﴿وَهُوَ يُحْيِ﴾ أي: ومن شأن هذا الولي أنه يحيى ﴿ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، فهو الحقيق بأن يتخذ وليًا دون من لا يقدر على شيء.

﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾

﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ﴾ حكاية قول رسول الله ﷺ للمؤمنين. أي: ما خالفكم فيه الكفار من أهل الكتاب والمشركين، فاختلفتم أنتم وهم فيه من أمر من أمور الدين، فحكم ذلك المختلف فيه مفوّض إلى الله تعالى، وهو إثابة المحقين فيه من المؤمنين ومعاقبة المبطلين، ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الحاكم بينكم هو ﴿ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في ردّ كيد أعداء الدين، ﴿وَإِلَيْهِ﴾ أرجع في كفاية شرهم. وقيل: وما اختلفتم فيه وتنازعتم من شيء من الخصومات فتحاكموا فيه إلى رسول الله ﷺ، ولا تؤثروا على حكومته حكومة غيره، كقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] وقيل: وما اختلفتم فيه من تأويل آية واشتبه عليكم فارجعوا في بيانه إلى المحكم من كتاب الله والظاهر من سنة رسول الله ﷺ وقيل: وما وقع بينكم الخلاف فيه من العلوم التي لا تتصل بتكليفكم ولا طريق لكم إلى علمه، فقولوا: الله أعلم، كمعرفة الروح. قال الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥]: فإن قلت: هل يجوز حمله على اختلاف المجتهدين في أحكام الشريعة؟ قلت: لا؛ لأنّ الاجتهاد لا يجوز بحضرة رسول الله ﷺ.

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ قرئ بالرفع والجر، فالرفع على أنه أحد أخبار ذلكم. أو خبر مبتدأ محذوف، والجرّ على: فحكمه إلى الله فاطر السموات، و﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إلى ﴿أُنِيبُ﴾ اعتراض بين الصفة والموصوف ﴿جَعَلَ لَكُمْ﴾ خلق/ ٢/ ١٦٢أ لكم ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ من جنسكم من الناس ﴿أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي: خلق من الأنعام أزواجاً. ومعناه: وخلق للأنعام أيضاً من أنفسها أزواجاً ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ يكثركم، يقال: ذرأ الله الخلق: بثهم وكثرهم. والذر، والذرو، والذرء: أخوات. ﴿فِيهِ﴾ في هذا التدبير، وهو أن جعل للناس والأنعام أزواجاً، حتى كان بين ذكورهم وإناثهم التوالد والتناسل. والضمير في ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ يرجع إلى المخاطبين والأنعام، مغلباً فيه المخاطبون العقلاء على الغيب مما لا يعقل، وهي من

الأحكام ذات العلتين[1]، فإن قلت: ما معنى يذرؤكم في هذا التدبير؟ وهلا قيل: يذرؤكم به؟ قلت: جعل هذا التدبير كالمنبع والمعدن للبث والتكثير؛ ألا تراك تقول: للحيوان في خلق الأزواج تكثير، كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩] قالوا: مثلك لا يبخل، فنفوا البخل عن مثله، وهم يريدون نفيه عن ذاته، قصدوا المبالغة في ذلك فسلكوا به طريق الكناية؛ لأنهم إذا نفوه عمن يسدّ مسدّه وعمن هو على أخص أوصافه، فقد نفوه عنه. ونظيره قولك للعربي: العرب لا تخفر الذمم، كان أبلغ[2] من قولك: أنت لا تخفر. ومنه قولهم: قد أيفعت لداته وبلغت أترابه، يريدون: إيفاعه وبلوغه. وفي حديث رقيقة بنت صيفي في سقيا عبد المطلب: «ألا وفيهم الطيب الطاهر[3] لذاته»

---

(١) قال محمود: «إن الضمير المتصل بيذرؤ عائد على الأنفس وعلى الأنعام مغلباً فيه المخاطبون العقلاء على الغيب مما لا يعقل، وهي من الأحكام ذات العلتين» قال أحمد: الصحيح أنهما حكمان متباينان غير متداخلين، أحدهما: مجيئه على نعت ضمير العقلاء أعم من كونه مخاطباً أو غائباً. والثاني: مجيئه بعد ذلك على نعت الخطاب، فالأول لتغليب العقل. والثاني لتغليب الخطاب.

(٢) قوله: «لا تخفر الذمم كان أبلغ» في الصحاح: أخفرته، إذا نقضت عهده وغدرت به، وفيه: «أيفع الغلام» أي: ارتفع: وهو يافع، ولا نقول: موفع. وقوله: «كان أبلغ» لعل تقديره: فإن قلت له ذلك كان أبلغ. (ع)

(٣) قال محمود: «تقول العرب: مثلك لا يبخل، فينفون البخل عن مثله، والمراد نفسه. ونظيره قولك للعربي: العرب لا تخفر الذمم. ومنه قولهم: قد أيفعت لداته وبلغت أترابه. وفي حديث رقيقة بنت صيفي في سقيا عبد المطلب: ألا وفيهم الطيب الطاهر لذاته، تريد طهارته وطيبه، فإذا علم أنه من باب الكناية: لم يكن فرق بين قولك: ليس كالله شيء وبين قوله: ليس كمثله شيء، إلا ما تعطيه الكناية من فائدتها. ونحوه قوله تعالى: (بل يداه مبسوطتان) فإن معناه بل هو جواد من غير تصور يدٍ ولا بسط؛ لأنها وقعت عبارة عن الجود لا يقصدون بها شيئاً آخر، حتى أنهم يستعملونها فيمن لا بد له؛ فكذلك استعمل هذا فيمن له مثل، وفيمن لا مثل له، ثم قال: ولك أن تزعم أن كلمة التشبيه كررت للتأكيد كما كررت في قول من قال: «وصاليات ككما يؤثفين».

ومن قال: «فأصبحت مثل كعصف مأكول» انتهى كلامه. قال أحمد: هذا الوجه الثاني مردود على ما فيه من الإخلال بالمعنى، وذلك أن الذي يليق هنا تأكيد نفي المماثلة، والكاف على هذا الوجه إنما تؤكد المماثلة وفرق بين تأكيد المماثلة المنفية، وبين تأكيد نفي المماثلة، فإن نفي المماثلة المهملة عن التأكيد أبلغ وآكد في المعنى من نفي المماثلة المقترنة بالتأكيد؛ إذ يلزم من نفي المماثلة غير المؤكدة نفي كل مماثلة. ولا يلزم من نفي مماثلة محققة متأكدة بالغة نفي مماثلة دونها في التحقيق والتأكيد. وحيث وردت الكاف مؤكدة للمماثلة وردت في الإثبات فأكدته، فليس النظر في الآية بهذين النظرين مستقيماً والله أعلم. ومما يرشد إلى صحة ما ذكرته أن للقائل أن يقول: ليس زيد شبيهاً بعمرو؛ لكن مشبهاً له، ولو عكس هذا لم يكن صحيحاً، وما ذاك إلا أنه يلزم من نفي أدنى المشابهة نفي أعلاها، ولا يلزم من نفي أعلاها نفي أدناها، فمتى أكد التشبيه قصر عن المبالغة. والوجه الأول الذي ذكره هو الوجه في الآية عنده، وأتى بمطية الضعف في هذا الوجه الثاني بقوله: ولك أن تزعم، فافهم.

(١٣٦٩) والقصد إلى طهارته وطيبه، فإذا علم أنه من باب الكناية لم يقع فرق بين قوله: ليس كالله شيء، وبين قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ إلا ما تعطيه الكناية من فائدتها، وكأنهما عبارتان معتقبتان على معنى واحد: وهو نفي المماثلة عن ذاته، ونحوه قوله عز وجل: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] فإن معناه: بل هو جواد من غير تصوّر يد ولا بسط لها؛ لأنها وقعت عبارة عن الجود لا يقصدون شيئاً آخر، حتى إنهم استعملوها فيمن لا يد له، فكذلك استعمل هذا فيمن له مثل ومن لا مثل له، ولك أن تزعم أنّ كلمة التشبيه كرّرت للتأكيد، كما كرّرها من قال [من الرجز]:

وَصَالِيَاتٍ كَكَمَا يُؤْثَفَيْنَ[1]

١٣٦٩ ـ أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (٢٤/ ٢٥٩)، حديث برقم (٦٦١)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ٧٢)، قال الحافظ: رواه ابن عبد الرحمن بن موهب حليف بني زهرة عن أبيه: حدثني مخرمة بن نوفل بحديث سقيا عبد المطلب لكن ليس فيه الطيب الطاهر لذاته، ورواه الطبراني، وأبو نعيم في الدلائل من حديث عروة بن مصرف عن مخرمة بن نوفل عن أمه رقيقة بنت أبي صيفي بن هاشم، وكانت لدة عبد المطلب قال: تتابعت على قريش سنون الحديث بطوله «ورويناه في جزء أبي السكين (تنبيه) وقع رقيقة بنت صيفي والصواب بنت أبي صيفي. انتهى».

---

(١) لم يبق من آي بها يحلين ... غير رماد وعظام كثفين
وغير ود جازل أو ودين ... وصاليات ككما يؤثفين

لخطام المجاشعي. والآي: واحدة آية، أي: علامة. ويحلين: مضارع مبني للمجهول، من حليته تحلية: إذا وصفت حليته وصفته. يقول: لم يبق من آثار هذه الديار علامات فيها تذكر صفتها غير رماد وعظام متكاثفين متراكمين. والكثف ـ بالتحريك ـ: كسبب: المجتمع، فلعله سكنه للوزن. وروي: غير رماد وخطام كثفين. والخطام: الزمام. ويروى بالمهملة، وهو ما تحطم وتكسر من الحطب اليابس. والكثف ـ كحمل: وعاء الرعي فكثفين على حذف العاطف. وقيل بدل مما قبله، والأوجه روايته، وخطام كثفين بالإضافة؛ لأجل موافقة القوافي أي: ورباط وعامين، وكرر أداة الاستثناء للتوكيد. والود: أصله وتد، فقلبت التاء دالاً وأدغمت في الأخرى عند تميم شذوذاً. والجادل: المنتصب والغليظ، أي: لم يبق غير وتد منتصب بها أو وتدين لا غير، حيث لم يشك إلا في ذلك. والصاليات صفة للأثافي. وقيل: صفة للنساء الموقدات للنار: وقيل: صفة للخيل الصاليات للحرب كالأثافي الصاليات للنار، لكنهما لا يناسبان وصف الدار بالخلو. والأثفية: حجر الكانون، وزنها: أفعولة في الأصل، وجمعها أثافي. وأثفيت للقدر: وضعت الأثافي لها. وثفيتها تثفية: وضعتها على الأثافي. وقوله: يؤثفين مضارع مبني للمجهول، جاء على الأصل مهموزاً، كيؤكر من بالهمزة، وهذا يدل على أن الصاليات صفة للأحجار الملازمات للنار المحترقات بها؛ فلعله شبه النساء بالأثافي لدمامتهن وسوادهن، بكثرة الدخان وملازمتهن النار. وعليه فالمعنى: ونساء صاليات كالأحجار تثفي وتوضع للقدر؛ فما موصولة واقعة على الأحجار لا مصدرية ولا كافة؛ وكرر كاف التشبيه للتوكيد، لكن الثانية اسم بمعنى مثل؛ لأن حرف الجر لا يدخل على مثله. ويمكن أنه كرر الحرف من غير إعادة المجرور شذوذاً. ويروى بعد قوله: وصاليات... الخ. =

ومن قال [من الرجز]:

فَأَصْبَحَتْ مِثْلَ كَعَصْفٍ مَأْكُولْ[1]

= لا يشتكين عملاً ما أنقين ما دام مخ في سلامى أو عين

وهو يناسب القول بأنها صفة للنساء أو الخيل على التشبيه السابق. والإنقاء: كثرة النقي بالكسر وهو المخ. يقال: أنقت الإبل إذا سمنت وكثر مخها، أي: لا يشتكين عملاً مدة إنقائهن وسمنهن، وفسر ذلك بقوله: ما دام مخ... الخ والسلاميات: عظام الأصابع وهي والعين آخر ما يبقى فيه المخ. ويروى أيضاً هكذا:

أهل عرفت الدار بالغريين وصاليات ككما يؤثفين؟

والغريان: بناءان طويلان، يقال: هما قبرا مالك وعقيل: نديمي جذيمة الأبرش؛ سميا بذلك لأن النعمان كان يغريهما بمن يريد قتله إذا خرج يوم بؤسه. والأشبه أن ذلك من تخليط الراوي، وأن الصاليات: الأحجار. وقوله: «لا يشتكين... الخ» ليس من هذا الرجز، فلا ينبغي روايته معه، وهو الذي من صفة الخيل، أو أصل النساء لا الصاليات، ويجوز أن الرجز هكذا:

أهل عرفت الدار بالغريين لم يبق من آي بها يلين

وأن قوله: «لا يشتكين... الخ» من موضع آخر من ذلك الرجز في صفة الخيل، كما رواه صاحب الكافي شاهداً على الإكفاء في القافية هكذا:

بنات وطاء على خد الليل لا يشتكين عملاً ما أنقين

لاختلاف حرفي الروي، والوطاء ـ بالضم والتشديد ـ: من الوطء على الأرض. وخد الليل: طريقه الذي لا يسلك إلا فيه. وقال بعضهم: إن هذا في صفة الخيل، وأنه من مشطور المنسرح الموقوف. وعلى أنه في صفة أجل، أي: فلك المطايا بنات نوق أو فحول، وطاء: جمع واطىء أو واطئة، على خد الليل: كناية عن قوتهن في السير، حتى كأنهن يغلبن الليل، فيصرعنه ويطأن على خده، فهن لا يبالين به.

ينظر البيت في لسان العرب (رنب)، (ثفا)، وتهذيب اللغة ١٥/١٤٩، وتاج العروس (ثفا)، (غرا)، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ١٠٣٦، وكتاب العين ٨/٢٤٥، ومقاييس اللغة ١/٥٨، والمخصص ٨/٧٦، ١٤/٤٩، ٦٤، ١٦/١٠٨، وديوان الأدب ٢/٣٣٥، ولسان العرب (أثف).

(١) بالأمس كانت في رخاء مأمول فأصبحت مثل كعصف مأكول

يروى لرؤبة بدله:

ولعب طير بهم أبابيل فصيروا مثل كعصف مأكول

يقول: بالأمس، أي: في الزمن الماضي القريب، كانت تلك الديار مثلاً في رخاء، أي: خصب وسعة من الثروة والغنى، مأمول ذلك، أي: متمنى للناس، وكرر كلمة التشبيه للتوكيد، والعصف: ما على الحب وعلى ساق الزرع من التين والورق اليابس، مأكول: أي أصابه الأكال، وهو الدود. وأكلته الدواب ثم راثته. وأبابيل، بمعنى جماعات متفرقة، صفة طير، وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه. وقيل: واحده أبول كعجول. وقيل: إبال كمفتاح. وقيل إبيل كمسكين. وقول رؤبة «صيروا» بالتشديد والبناء للمجهول، ولعل هذا رجز غير ذاك.

لرؤبة في ملحق ديوانه ص ١٨١، وخزانة الأدب ١٠/١٦٨، ١٧٥، ١٨٤، ١٨٩، وشرح التصريح ١/٢٥٢، وشرح شواهد المغني ١/٥٣، والمقاصد النحوية ٢/٤٠٢، ولحميد الأرقط في الدرر ٢/ ٢٥٠، والكتاب ١/٤٠٨، وبلا نسبة في أوضح المسالك ٢/٥٢، والجنى الداني ص ٩٠، وخزانة =

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

وقرئ: «ويقدر» ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فإذا علم أنّ الغنى خير للعبد أغناه، وإلا أفقره.

﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ دين نوح ومحمد ومن بينهما من الأنبياء، ثم فسر المشروع الذي اشترك هؤلاء الأعلام من رسله فيه بقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ والمراد: إقامة دين الإسلام الذي هو توحيد الله وطاعته، والإيمان برسله وكتبه، وبيوم الجزاء، وسائر ما يكون الرجل بإقامته مسلماً، ولم ترد الشرائع التي هي مصالح الأمم على حسب أحوالها، فإنها مختلفة متفاوتة. قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] ومحل ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟﴾ إما نصب بدل من مفعول شرع والمعطوفين عليه، وإما رفع على الاستئناف، كأنه قيل: وما ذلك المشروع؟ فقيل: هو إقامة الدين، ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢]. ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ عظم عليهم وشق عليهم ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ من إقامة دين الله والتوحيد. ﴿يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ﴾ يجتلب إليه ويجمع ـ والضمير للدين بالتوفيق والتسديد ـ ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من ينفع فيهم توفيقه ويجرى عليهم لطفاً.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟﴾ يعني أهل الكتاب بعد أنبيائهم ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ﴾ أن علموا أنّ الفرقة ضلال وفساد، وأمر متوعد عليه على ألسنة الأنبياء. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ وهي عدة التأخير إلى يوم القيامة ﴿لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ حين افترقوا لعظم ما اقترفوا. ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ [الشورى: ١٤] وهم أهل الكتاب الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ ﴿لَفِى شَكٍّ﴾ من كتابهم لا يؤمنون به حق الإيمان. وقيل: كان الناس أمّة واحدة مؤمنين بعد أن أهلك الله أهل الأرض أجمعين بالطوفان، فلما مات الآباء اختلف الأبناء فيما بينهم، وذلك حين بعث الله إليهم النبيين مبشرين ومنذرين وجاءهم العلم. وإنما اختلفوا للبغي بينهم. وقيل: وما تفرّق أهل الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بمبعث

= الأدب ٧/ ٧٣، ورصف المباني ص ٢٠١، وسرّ صناعة الإعراب ص ٢٩٦، وشرح الأشموني ١/ ١٥٨، ولسان العرب (عصف)، ومغني اللبيب ١/ ١٨٠، والمقتضب ٤/ ١٤١، ٣٥٠، وهمع الهوامع ١/ ١٥٠، وتاج العروس (عصف).

رسول الله ﷺ، كقوله تعالى: ﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة﴾ [البينة: ٤] وإنّ الذين «أورثوا» الكتاب من بعدهم هم المشركون الذين أورثوا القرآن من بعد ما أورث أهل الكتاب التوراة والإنجيل. وقرئ «وزثوا» وورثوا.

﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ ۖ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾

﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ فلأجل ذلك التفرق ولما حدث بسببه من تشعب الكفر شعباً ﴿فَادْعُ﴾ إلى الاتفاق والائتلاف على الملة الحنيفية/ ٢/ ١٦٢ب القديمة، ﴿وَاسْتَقِمْ﴾ عليها وعلى الدعوة إليها كما أمرك الله، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ المختلفة الباطلة بما أنزل الله من كتاب، أيّ كتاب صحّ أنّ الله أنزله، يعني الإيمان بجميع الكتب المنزلة؛ لأنّ المتفرقين آمنوا ببعض وكفروا ببعض، كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء: ١٥٠] إلى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥١] ﴿لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ في الحكم إذا تخاصمتم فتحاكمتم إليّ. ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي لا خصومة. لأنّ الحق قد ظهر وصرتم محجوبين به فلا حاجة إلى المحاجة. ومعناه: لا إيراد حجة بيننا؛ لأنّ المتحاجين يورد هذا حجته وهذا حجته. ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ يوم القيامة فيفصل بيننا وينتقم لنا منكم؛ وهذه محاجزة ومتاركة بعد ظهور الحق وقيام الحجة والإلزام. فإن قلت: كيف حوجزوا وقد فعل بهم بعد ذلك ما فعل من القتل وتخريب البيوت وقطع النخيل والإجلاء؟ قلت: المراد محاجزتهم في مواقف المقاولة لا المقاتلة.

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾

﴿يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾ يخاصمون في دينه ﴿مِن بَعْدِ﴾ ما استجاب له الناس ودخلوا في الإسلام؛ ليردّوهم إلى دين الجاهلية، كقوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ [البقرة: ١٠٩] كان اليهود والنصارى يقولون للمؤمنين: كتابنا قبل كتابكم، ونبينا قبل نبيكم، ونحن خير منكم[1] وأولى بالحق. وقيل: من بعد ما استجاب الله لرسوله ونصره يوم بدر وأظهر دين الإسلام. ﴿دَاحِضَةٌ﴾ باطلة زالة.

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا

---

(١) قوله: «ونحن خير منكم» لعله: «فنحن» كعبارة النسفي.

﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾

﴿أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي جنس الكتاب، ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ والعدل والتسوية. ومعنى إنزال العدل: أنه أنزله في كتبه المنزلة. وقيل: الذي يوزن به. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: ملتبساً بالحق، مقترناً به، بعيداً من الباطل، أو بالغرض الصحيح كما اقتضته الحكمة. أو بالواجب من التحليل والتحريم وغير ذلك، ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ في تأويل البعث؛ فلذلك قيل: ﴿قَرِيبٌ﴾ أو لعل مجيء الساعة قريب. فإن قلت: كيف يوفق ذكر اقتراب الساعة مع إنزال الكتاب والميزان؟ قلت: لأنّ الساعة يوم الحساب ووضع الموازين للقسط، فكأنه قيل: أمركم الله بالعدل والتسوية والعمل بالشرائع قبل أن يفاجئكم اليوم الذي يحاسبكم فيه ويزن أعمالكم، ويوفي لمن أوفى ويطفف لمن طفف. المماراة: الملاجة[1]؛ لأنّ كل واحد منهما يمري ما عند صاحبه ﴿لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ من الحق: لأنّ قيام الساعة غير مستبعد من قدرة الله، ولدلالة الكتاب المعجز على أنها آتية لا ريب فيها، ولشهادة العقول على أنه لا بدّ من دار الجزاء.

﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾

﴿لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ برّ بليغ البرّ بهم، قد توصل برّه إلى جميعهم، وتوصل من كل واحد منهم إلى حيث لا يبلغه، وهم أحد من كلياته وجزئياته. فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ بعد توصل برّه إلى جميعهم؟ قلت: كلهم مبرورون لا يخلو أحد من برّه، إلا أنّ البرّ أصناف، وله أوصاف. والقسمة بين العباد تتفاوت على حسب تفاوت قضايا الحكمة والتدبير، فيطير لبعض العباد صنف من البر لم يطر مثله لآخر، ويصيب هذا حظ له وصف ليس ذلك الوصف لحظ صاحبه، فمن قسم له منهم ما لا يقسم للآخر فقد رزقه، وهو الذي أراد بقوله تعالىٰ: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢١٢] كما يرزق أحد الأخوين ولداً دون الآخر، على أنه أصابه بنعمة أخرى لم يرزقها صاحب الولد. ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ﴾ الباهر القدرة، الغالب على كل شيء، ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ المنيع الذي لا يغلب.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾

سمى ما يعمله العامل مما يبغي به الفائدة والزكاء حرثاً على المجاز. وفرق بين عملي العاملين: بأن من عمل للآخرة وفق في عمله وضوعفت حسناته، ومن كان عمله للدنيا

(١) قوله: «الملاجة» بالجيم: التمادي في الخصومة، ويمري: أي يستخرج، كذا في الصحاح. (ع)

أعطى شيئاً منها لا ما يريده ويبتغيه. وهو رزقه الذي قسم له وفرغ منه وما له نصيب قط في الآخرة، ولم يذكر في معنى عامل الآخرة وله في الدنيا نصيب، على أن رزقه المقسوم له واصل إليه لا محالة؛ للاستهانة بذلك إلى جنب ما هو بصدده من زكاء عمله وفوزه في المآب.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾

معنى الهمزة في ﴿أَمْ﴾ التقرير والتقريع. وشركاؤهم: شياطينهم الذين زينوا لهم الشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا؛ لأنهم لا يعلمون غيرها وهو الدين الذي شرعت لهم الشياطين، وتعالى الله عن الإذن فيه والأمر به، وقيل: شركاؤهم أوثانهم، وإنما أضيفت إليهم لأنهم متخذوها شركاء لله/ ٢/ ١٦٣أ، فتارة تضاف إليهم لهذه الملابسة. وتارة إلى الله؛ ولما كانت سبباً لضلالتهم وافتتانهم: جعلت شارعة لدين الكفر، كما قال إبراهيم صلوات الله عليه: ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦] ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي القضاء السابق بتأجيل الجزاء، أو: ولولا العدة بأن الفصل يكون يوم القيامة ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين الكافرين والمؤمنين، أو بين المشركين وشركائهم. وقرأ مسلم بن جندب «وأنّ الظالمين» بالفتح عطفاً له على كلمة الفصل، يعني: ولولا كلمة الفصل وتقدير تعذيب الظالمين في الآخرة لقضي بينهم في الدنيا.

﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّٰتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾

﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في الآخرة ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين خوفاً شديداً أرق قلوبهم ﴿مِمَّا كَسَبُوا۟﴾ من السيئات، ﴿وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ يريد: ووباله واقع بهم وواصل إليهم لا بدّ لهم منه، أشفقوا أو لم يشفقوا. كأن روضة جنة المؤمن أطيب بقعة فيها وأنزهها. ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ منصوب بالظرف لا بـ ﴿يَشَآءُونَ﴾. قرئ: «يبشر» من بشره. ويبشر من أبشره. ويبشر، من بشره. والأصل: ذلك الثواب الذي يبشر الله به عباده، فحذف الجار، كقوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٥٥] ثم حذف الراجع إلى الموصول، كقوله تعالى: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١] أو ذلك التبشير الذي يبشره الله عباده[1]. روي أنه

---

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وليس بظاهر إذ لم يتقدم في هذه السورة لفظ البشري، ولا ما يدل عليه من بشر أو شبهه، انتهى. الدر المصون.

اجتمع المشركون في مجمع لهم فقال بعضهم لبعض: أترون محمداً يسأل على ما يتعاطاه أجراً؟ فنزلت الآية: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ يجوز أن يكون استثناء متصلاً، أي: لا أسألكم أجراً إلا هذا، وهو أن تودوا أهل قرابتي؛ ولم يكن هذا أجراً في الحقيقة؛ لأنّ قرابته قرابتهم، فكانت صلتهم لازمة لهم في المروءة. ويجوز أن يكون منقطعاً، أي: لا أسألكم أجراً قط، ولكنني أسألكم أن تودوا قرابتي الذين هم قرابتكم ولا تؤذوهم. فإن قلت: هلا قيل: إلا مودّة القربى: أو إلا المودة للقربى. وما معنى قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]؟ قلت: جعلوا مكاناً للمودة ومقرًا لها، كقولك: لي في آل فلان مودّة، ولي فيهم هوى وحب شديد، تريد: أحبهم وهم مكان حبي ومحله، وليست (في) بصلة للمودّة، كاللام إذا قلت: إلا المودّة للقربى. إنما هي متعلقة بمحذوف تعلق الظرف به في قولك: المال في الكيس. وتقديره: إلا المودّة ثابتة في القربى ومتمكنة[1] فيها. والقربى: مصدر كالزلفى والبشرى، بمعنى: قرابة. والمراد في أهل القربى. وروي أنها لما نزلت قيل: يا رسول الله، من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودّتهم؟ قال: «عليّ وفاطمة وابناهما» (١٣٧٠) ويدل عليه ما روي عن علي رضي الله عنه: شكوت إلى رسول الله ﷺ حسد الناس لي. فقال: «أما ترضى أن تكون رابع أربعة: أوّل من يدخل الجنة أنا وأنت والحسن والحسين، وأزواجنا عن أيماننا وشمائلنا، وذريتنا خلف أزواجنا (١٣٧١) وعن

١٣٧٠ ـ أخرجه الطبراني في معجمه (١١/ ٤٤٤)، حديث (١٢٢٥٩)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٧٠١)، وعزاه إلى ابن المنذر، وابن حاتم، وابن مردويه والطبراني، وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٢٣٤)، وزاد نسبته إلى كتاب مناقب الشافعي للحاكم.

وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه الطبراني، وابن أبي حاتم، والحاكم في مناقب الشافعي من رواية حسين الأشقر عن قيس بن الربيع عن الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وحسين ضعيف ساقط، وقد عارضه مما هو أولى منه؛ ففي البخاري من رواية طاوس عن ابن عباس أنه سئل عن هذه الآية؛ فقال سعيد بن جبير: قربى آل محمد ﷺ؛ فقال ابن عباس: عجلت. إن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش إلاّ كان له فيهم قربة ـ الحديث»، قلت: وأخرج سعيد بن منصور من طريق الشعبي قال: «أكثروا علينا في هذه الآية. فكتبنا إلى ابن عباس فكتب ـ فذكر نحوه» وابن طاوس أتم منه. انتهى.

١٣٧١ ـ أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (١/ ٣١٩)، حديث برقم (٩٥٠)، وذكره القرطبي (١٦/ ١٦)، وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٢٣٥)، وزاد نسبته إلى الثعلبي. =

---

(١) قال محمود: «إن قلت هلا قيل: إلا مودة القربى. أو: إلا المودة للقربى. وأجاب بأنهم جعلوا مكاناً للمودة ومقرًا لها، كقولك: لي في آل فلان هوى وحب شديد، وليس (في) صلة للمودة، كاللام إذا قلت: إلا المودة للقربى؛ وإنما هي متعلقة بمحذوف تقديره: إلا المودة ثابتة في القربى ومتمكنة فيها، قال أحمد: وهذا المعنى هو الذي قصد بقوله في الآية التي تقدمت؛ إن قوله: (يذرؤكم فيه)، إنما جاء عوضاً من قوله: يذرؤكم به، فافهمه.

النبي ﷺ: «حرمت الجنة على من ظلم أهل بيتي وآذاني في عترتي، ومن اصطنع صنيعة إلى أحد من ولد عبد المطلب ولم يجازه عليها فأنا أجازيه عليها غداً إذا لقيني يوم القيامة» (١٣٧٢) وروي: أنّ الأنصار قالوا: فعلنا وفعلنا، كأنهم افتخروا، فقال عباس أو ابن عباس رضي الله عنهما: لنا الفضل عليكم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأتاهم في مجالسهم فقال: «يا معشر الأنصار، ألم تكونوا أذلة فأعزكم الله بي»؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بي»؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «أفلا تجيبونني»؟ قالوا: ما نقول يا رسول الله؟ قال: «ألا تقولون: ألم يخرجك قومك فآويناك؟ أو لم يكذبوك فصدقناك؟ أو لم يخذلوك فنصرناك؟» قال: فما زال يقول حتى جثوا على الركب وقالوا: أموالنا وما في أيدينا لله ولرسوله. فنزلت الآية (١٣٧٣). وقال رسول الله ﷺ: «من مات على حب آل محمد مات شهيداً (١٣٧٤)، ألا ومن مات على

= وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه الكديمي عن ابن عائشة بسنده عن علي رضي الله عنه ورواه الطبراني من حديث أبي رافع أن النبي ﷺ قال لعلي: إن أول أربعة يدخلون الجنة ـ فذكره وسنده واحد». انتهى.

١٣٧٢ ـ ذكره القرطبي في تفسيره (١٦/١٦)، وذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/٢٢٥ ـ ٢٣٣ ـ ٢٥٩) حديث (٢٣٦) (٢٤٠٧) (٢٥٢٤)، وقال: أخرجه الطبراني في الأوسط عن عثمان بن عفان، قال رسول الله ﷺ: «من صنع إلى أحد من ولد عبد المطلب يداً فلم يكافئه بها في الدنيا فهي مكافأته غداً إذا لقيني».

وللثعلبي في تفسيره بسند به بعض الكذابين على رفعه «من اصطنع صنيعة إلى أحد من ولد عبد المطلب ولم يجازه عليها فأنا أجازيه عليها إذا لقيني يوم القيامة».

ورواه الجعابي في تاريخ الطالبين بلفظ: «من اصطنع معروفاً إلى أحد من أهل بيتي يداً كافأته عنها يوم القيامة، وقد بينه السخاوي في استجلاء وارتقاء الغرف».

قال الحافظ: أخرجه الثعلبي من حديث علي رضي الله عنه وفيه عبد الله بن أحمد بن عامر الطائي عن أبيه وهو كذاب. انتهى.

١٣٧٣ ـ أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١١/١٤٤)، حديث برقم (٣٠٦٧٨)، أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٤/٥١٥)، حديث (٣٨٧٦)، وذكره القرطبي في تفسيره (١٦/١٧)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/٧٠١)، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم وابن مردويه، وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/٢٣٧)، وزاد نسبته إلى الثعلبي.

قال الطبراني: لم يرو هذا الحديث عن يزيد بن أبي زياد إلاّ عبد السلام بن حرب، تفرد به عبد المؤمن بن علي.

وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه الطبري، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والطبراني في الأوسط كلهم من حديث ابن عباس، وفيه يزيد بن زياد وهو ضعيف. انتهى.

١٣٧٤ ـ قال الحافظ: أخرجه الثعلبي أخبرنا عبد الله بن محمد بن علي البلخي ثنا يعقوب بن يوسف بن إسحاق ثنا محمد بن أسلم ثنا يعلى بن عبيد عن إسماعيل بن قيس عن جرير ـ بطوله وأثار الوضع عليه لائحة ومحمد وما فوقه أثبات والآفة فيه ما بين الثعلبي ومحمد. انتهى.

حب آل محمد مات مغفوراً له، ألا ومن مات على حب آل محمد مات تائباً، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمناً مستكمل الإيمان، ألا ومن مات على حب آل محمد بشره ملك الموت بالجنة، ثم منكر ونكير، ألا ومن مات على حب آل محمد يزف إلى الجنة كما تزف العروس إلى بيت زوجها، ألا ومن مات على حب آل محمد فتح له في قبره بابان إلى الجنة، ألا ومن مات على حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة، ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة، ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوب[1] بين عينيه: آيس من رحمة الله، ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافراً، ألا ومن مات على بغض آل محمد/ ٢/ ١٦٣ب لم يشم رائحة الجنة» وقيل: لم يكن بطن من بطون قريش إلا وبين رسول الله ﷺ وبينهم قربى، فلما كذبوه وأبوا أن يبايعوه نزلت. والمعنى: إلا أن تودوني في القربى، أي: في حق القربى أو من أجلها، كما تقول: الحب في الله والبغض في الله، بمعنى: في حقه ومن أجله، يعني: أنكم قومي وأحق من أجابني وأطاعني، فإذ قد أبيتم ذلك فاحفظوا حق القربى ولا تؤذوني ولا تهيجوا عليّ. وقيل: أتت الأنصار رسول الله ﷺ بمال جمعوه وقالوا يا رسول الله: قد هدانا الله بك وأنت ابن أختنا وتعروك نوائب وحقوق ومالك سعة، فاستعن بهذا على ما ينوبك، فنزلت، وردّه (١٣٧٥). وقيل ﴿ٱلْقُرْبَىٰ﴾: التقرب إلى الله تعالى، أي: إلا أن تحبوا الله ورسوله في تقرّبكم إليه بالطاعة والعمل الصالح. وقرئ: «إلا مودّة في القربى» ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ عن السدّي أنها المودّة في آل رسول الله ﷺ، نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه ومودّته فيهم. والظاهر: العموم في أي حسنة كانت؛ إلا أنها لما ذكرت عقيب ذكر المودّة في القربى: دل ذلك على أنها تناولت المودّة تناولاً أوّليًا، كأنّ سائر الحسنات لها توابع. وقرئ «يزد» أي: يزد الله. وزيادة حسنها من جهة الله مضاعفتها، كقوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥] وقرئ: «حسنى» وهي مصدر كالبشرى، الشكور في صفة الله:

١٣٧٥ ـ أخرجه الطبراني في معجمه الأوسط (٦/ ٣٥٤) حديث برقم (٥٧٥٤)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٧٠١) وزاد نسبته إلى ابن مردويه، وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٢٣٩)، وزاد نسبته إلى ابن مردويه والثعلبي والواحدي في أسباب النزول. قال الطبراني: لم يرو هذا الحديث عن عثمان أبي اليقظان إلاّ نصير بن زياد، تفرد به حسين الأشقر.

قال الزيلعي: غريب، وقال الحافظ ابن حجر: ذكره الثعلبي والواحدي في الأسباب عن ابن عباس بغير سند. ويشبه أن يكون عن الكلبي عن أبي صالح عنه. وروى الطبراني من طريق عثمان أبي اليقظان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. وأخرجه ابن مردويه عنه. انتهى.

---

(١) قوله: «مكتوب بين عينيه» لعله: مكتوباً.

مجاز للاعتداد بالطاعة، وتوفيه ثوابها، والتفضل على المثاب

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾

﴿أَمْ﴾ منقطعة. ومعنى الهمزة فيه التوبيخ[1]، كأنه قيل: أيتمالكون أن ينسبوا مثله إلى الافتراء، ثم إلى الافتراء على الله الذي هو أعظم الفرى وأفحشها. ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ فإن يشأ الله يجعلك من المختوم على قلوبهم، حتى تفتري عليه الكذب فإنه لا يجترىء على افتراء الكذب على الله إلا من كان في مثل حالهم، وهذا الأسلوب مؤدّاه استبعاد الافتراء من مثله، وأنه في البعد مثل الشرك بالله والدخول في جملة المختوم على قلوبهم. ومثال هذا: أن يخوّن بعض الأمناء فيقول: لعل الله خذلني، لعل الله أعمى قلبي، وهو لا يريد إثبات الخذلان وعمى القلب. وإنما يريد استبعاد أن يخوّن مثله، والتنبيه على أنه ركب من تخوينه أمر عظيم، ثم قال: ومن عادة الله أن يمحو الباطل ويثبت الحق. ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ بوحيه أو بقضائه كقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾[2] [الأنبياء: ١٨] يعني: لو كان مفترياً كما تزعمون لكشف الله افتراءه ومحقه وقذف بالحق على باطله فدمغه. ويجوز أن يكون عدة لرسول الله ﷺ بأنه يمحو الباطل الذي هم عليه من البهت والتكذيب، ويثبت الحق الذي أنت عليه بالقرآن وبقضائه الذي لا مردّ له من نصرتك عليهم، إنّ الله عليم بما في صدرك وصدورهم، فيجري الأمر على حسب ذلك. وعن قتادة ﴿يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾: ينسك القرآن ويقطع عنك الوحي، يعني: لو افترى على الله الكذب لفعل به ذلك، وقيل ﴿يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾: يربط عليه بالصبر، حتى لا يشق عليك أذاهم. فإن قلت: إن كان قوله: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ كلاماً مبتدأ غير معطوف على يختم، فما بال الواو ساقطة في الخط؟ قلت: كما سقطت في قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾ [الإسراء: ١١] وقوله تعالى: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ [العلق: ١٨] على أنها مثبتة في بعض المصاحف.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾

يقال: قبلت منه الشيء، وقبلته عنه. فمعنى قبلته منه: أخذته منه وجعلته مبدأ قبولي ومنشأه. ومعنى: قبلته عنه: عزلته عنه وأبنته عنه. والتوبة: أن يرجع عن القبيح والإخلال بالواجب بالندم عليهما والعزم على أن لا يعاود؛ لأنّ المرجوع عنه قبيح وإخلال

---

(١) قوله: «ومعنى الهمزة فيه للتوبيخ» لعله: فيها.

(٢) قوله: «من البهت» أي: إتهام الإنسان بما ليس فيه.

بالواجب. وإن كان فيه لعبد حق لم يكن بد من التقصي على طريقه، وروى جابر أن أعرابيًا دخل مسجد رسول الله ﷺ وقال: اللّهم إني أستغفرك وأتوب إليك، وكبر، فلما فرغ من صلاته قال له علي رضي الله عنه: يا هذا، إنّ سرعة اللسان بالاستغفار توبة لكذابين، وتوبتك تحتاج إلى التوبة. فقال: يا أمير المؤمنين، وما التوبة؟ قال: اسم يقع على ستة معان: على الماضي من الذنوب الندامة، ولتضييع الفرائض الإعادة، وردّ المظالم، وإذابة النفس في الطاعة كما ربيتها في المعصية، وإذاقة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية، والبكاء بدل كل ضحك ضحكته. ﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ عن الكبائر إذا تيب عنها، وعن الصغائر إذا اجتنبت الكبائر. ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾. قرئ بالتاء والياء، أي: يعلمه فيثيب على حسناته، ويعاقب على سيئاته.

﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾/ ٢/ ١٦٤أ أي يستجيب لهم، فحذف اللام كما حذف في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾ [المطففين: ٣] أي يثيبهم على طاعتهم ويزيدهم على الثواب تفضلاً، أو إذا دعوه استجاب دعاءهم وأعطاهم ما طلبوا وزادهم على مطلوبهم. وقيل: الاستجابة: فعلهم، أي يستجيبون له بالطاعة إذا دعاهم إليها. ﴿وَيَزِيدُهُم﴾ هو ﴿مِّن فَضْلِهِۦ﴾ على ثوابهم. وعن سعيد بن جبير: هذا من فعلهم: يجيبونه إذا دعاهم. وعن إبراهيم بن أدهم أنه قيل له: ما بالنا ندعو فلا نجاب؟ قال: لأنه دعاكم فلم تجيبوه، ثم قرأ: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥]، ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾

﴿لَبَغَوْاْ﴾ من البغي وهو الظلم، أي: لبغى هذا على ذاك، وذاك على هذا؛ لأنّ الغنى مبطرة مأشرة[1]، وكفى بحال قارون عبرة. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام:

«أخوف ما أخاف على أمّتي زهرة الدنيا وكثرتها» (١٣٧٦) ولبعض العرب [من الطويل]:

١٣٧٦ ـ أخرجه ابن جرير الطبري (١١/ ١٤٩). حديث (٣٠٦٩٨)، عن قتادة، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٧٠٤)، وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٢٣٩)، وزاد نسبته إلى الثعلبي، وله شاهد من حديث أبي سعيد الخدري، أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ٨٧): كتاب الزكاة، باب الصدقة على اليتامى، حديث (١٤٦٥)، ومسلم في صحيحه (٤/ ١٥٢) كتاب الزكاة: باب تخوف =

---

(١) قوله: «مبطرة مأشرة» في الصحاح: الأشر: البطر. (ع).

وَقَدْ جَعَلَ الْوَسْمِيُّ يَنْبُتُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ بَنِي رُومَانَ نَبْعاً وَشَوْحَطَا[1]

يعني: أنهم أحيوا فحدّثوا أنفسهم بالبغي والتفانن. أو من البغي وهو البذخ والكبر، أي: لتكبروا في الأرض، وفعلوا ما يتبع الكبر من العلو فيها والفساد. وقيل: نزلت في قوم من أهل الصفة تمنوا سعة الرزق والغنى. قال خباب بن الأرت: فينا نزلت، وذلك أنا نظرنا إلى أموال بني قريظة والنضير وبني قينقاع فتمنيناها (١٣٧٧) ﴿بِقَدَرٍ﴾ بتقدير. يقال قدره قدراً وقدرا. ﴿خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ يعرف ما تئول إليه أحوالهم، فيقدّر لهم ما هو أصلح لهم وأقرب إلى جمع شملهم، فيفقر ويغني، ويمنع ويعطي، ويقبض ويبسط كما توجبه الحكمة الربانية. ولو أغناهم جميعاً لبغوا، ولو أفقرهم لهلكوا. فإن قلت: قد نرى الناس يبغي بعضهم على بعض، ومنهم مبسوط لهم، ومنهم مقبوض عنهم؛ فإن كان المبسوط لهم يبغون، فلم بسط لهم، وإن كان المقبوض عنهم يبغون فقد يكون البغي بدون البسط، فلم شرطه؟ قلت: لا شبهة في أنّ البغي مع الفقر أقل ومع البسط أكثر وأغلب، وكلاهما سبب ظاهر للإقدام على البغي والإحجام عنه، فلو عم البسط لغلب البغي حتى ينقلب الأمر إلى عكس ما عليه[2] الآن.

= ما يخرج من زهرة الدنيا، حديث (١٠٥٢)، والنسائي (٥/ ٩٠) كتاب الزكاة، باب الصدقة على اليتيم حديث (٢٥٨١). وابن ماجه (٢/ ١٣٣٢) كتاب الفتن: باب فتنة المال حديث برقم (٣٩٩٥)، وأحمد في مسنده (٣/ ٩١)، وابن حبان في صحيحه (٨/ ٢٠) كتاب الزكاة: باب جمع المال من حله وما يتعلق بذلك (٣٢٢٥)، وأبو يعلى الموصلي في مسنده (٢/ ٤٣٦)، حديث برقم (١٢٤٢)، وعبد الرزاق في مصنفه (١١/ ٩٦)، كتاب الجامع: باب في أصحاب الأموال، حديث (٢٠٠٢٨)، والحميدي في مسنده (٢/ ٣٢٥)، حديث (٧٤٠)، وقال الحافظ: أخرجه الطبري من رواية سعيد عن قتادة قال: ذكر لنا أن رسول الله ـ ﷺ ـ.. بهذا ـ وزاد: «وكان يقال: خير الرزق ما لا يطغيك ولا يلهيك» وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري، بلفظ: «إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا». انتهى.

١٣٧٧ ـ أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٥/ ١٩)، وذكره البغوي في تفسيره (٤/ ١٢٧)، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ١٩)، والواحدي في الوسيط (٤/ ٥٤).

---

(١) يروى: وقد جعل الوسمي أول مطر السنة؛ لأنه يسم الأرض بالنبات. والنبع: شجر تتخذ منه القسي. والشوحط مثله، أي: قد يشرع المطر في إنبات الأشجار بيننا وبينهم. والمعنى: أنهم يطلبون الإقامة حتى تعظم الأشجار بينهم؛ لأنهم أغنياء لا يكثرون الارتحال كغيرهم. أو المعنى: أنهم كانوا إذا جاء الربيع وبلغت تلك الأشجار يتخذون منها الرماح والقسي، ويتحاربون. فالكلام كناية عن انتشاب الحرب بين القبيلتين، وهذا هو الذي يعطيه السياق، وذكر البينة، وتخصيص ذلك الشجر.
ينظر: لسان العرب (شحط)، تاج العروس (شحط).

(٢) قوله: «عكس ما عليه الآن» لعله: ما هو عليه.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾

قرئ: «قنطوا» بفتح النون وكسرها ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ أي: بركات الغيث ومنافعه وما يحصل به من الخصب. وعن عمر رضي الله عنه أنه قيل له: اشتدّ القحط وقنط الناس (١٣٧٨) فقال: مطروا إذاً. أراد هذه الآية. ويجوز أن يريد رحمته في كل شيء، كأنه قال: ينزل الرحمة التي هي الغيث، وينشر غيرها من رحمته الواسعة. ﴿ٱلْوَلِىُّ﴾ الذي يتولى عباده بإحسانه. ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المحمود على ذلك يحمده أهل طاعته.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾

﴿وَمَا بَثَّ﴾ يجوز أن يكون مرفوعاً ومجروراً يحمل على المضاف إليه أو المضاف. فإن قلت: لم جاز ﴿فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ والدواب في الأرض وحدها؟ قلت: يجوز أن ينسب الشيء إلى جميع المذكور وإن كان ملتبساً ببعضه، كما يقال: بنو تميم فيهم شاعر مجيد أو شجاع بطل، وإنما هو في فخذ[1] من أفخاذهم أو فصيلة من فصائلهم، وبنو فلان فعلوا كذا، وإنما فعله نويس منهم. ومنه قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ [الرحمٰن: ٢٢] وإنما يخرج من الملح[2]، ويجوز أن يكون للملائكة عليهم السلام مشي مع الطيران. فيوصفوا بالدبيب كما يوصف به الأناسي. ولا يبعد أن يخلق في السمٰوات حيواناً

١٣٧٨ ـ أخرجه ابن جرير الطبري في جامع البيان (٣٠٧٠٠) وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ١٩١)، وذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن الكريم (١٦/ ٢٠)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٧٠٥)، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر، وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٢٤٠)، وزاد نسبته إلى الثعلبي، قال الحافظ ابن حجر: أخرجه الثعلبي من طريق قتادة قال: وذكر لنا فذكره بتمامه ورواه باختصار عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال: ذكر لنا أن رجلاً أتى عمر بن الخطاب فقال يا أمير المؤمنين قحط المطر وقنط الناس، فقال مطروا إذاً.

---

(١) قوله: «فخذ» العشائر أقلها الفخذ، وفوقه البطن، ثم العمارة، ثم الفصيلة، ثم القبيلة، ثم الشعب. فهو أكثرها. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قال محمود: «فإن قلت: لم جاز فيهما من دابة والدواب في الأرض وحدها؟ وأجاب بأنه يجوز أن ينسب الشيء إلى جميع المذكور وإن كان لبعضه، كقوله تعالى: (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) وإنما يخرج من الملح... الخ» قال أحمد: إطلاق الدواب على الأناسي بعيد من عرف اللغة، فكيف في إطلاقه على الملائكة، والصواب ـ والله أعلم ـ: هو الوجه الأول، وقد جاء مفسراً في غير ما آية، كقوله: (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار) ثم قال: (وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة» فخص هذا الأمر بالأرض، والله أعلم.

يمشي فيها مشي الأناسي على الأرض، سبحان الذي خلق ما نعلم وما لا نعلم من أصناف الخلق. ﴿إِذَا﴾ يدخل على المضارع كما يدخل على الماضي قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١﴾ [الليل: ١] ومنه ﴿إِذَا يَشَآءُ﴾ وقال الشاعر [من الخفيف]:

وَإِذَا مَـا أَشَـاءُ أَبْـعَـثُ مِـنْـهَـا آخِـرَ الـلَّـيْـلِ نَـاشِـطـاً مَـذْعُـورَا[1]

﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۝٣٠ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٣١﴾

في مصاحف أهل العراق ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ﴾ بإثبات الفاء على تضمين «ما» معنى الشرط. وفي مصاحف أهل المدينة ﴿بما كسبت﴾ بغير فاء، على أنّ (ما) مبتدأة، وبما كسبت: خبرها من غير تضمين معنى الشرط. والآية مخصوصة بالمجرمين[2] ولا يمتنع أن يستوفي الله بعض عقاب المجرم ويعفو عن بعض. فأمّا من لا جرم له كالأنبياء والأطفال والمجانين، فهؤلاء إذا أصابهم شيء من ألم أو غيره فللعوض الموفى والمصلحة. وعن النبي ﷺ ٢/ ١٦٤ب: «ما من اختلاج عرق ولا خدش عود ولا نكبة حجر إلا بذنب، ولما يعفو الله عنه أكثر» (١٣٧٩) وعن بعضهم: من لم يعلم أن ما وصل إليه من الفتن

١٣٧٩ ـ الحديث مروي عن الحسن البصري ـ وقتادة والبراء. أما حديث الحسن: أخرجه البيهقي في =

---

(١) إذا: ظرف للمستقبل، فإذا دخل عليه الماضي كان مستقبلاً؛ أو المضارع كان نصًا في الاستقبال، وجرد من الناقة أمراً آخر لشدة سيرها؛ فلذلك قال: منها. وأصل المعنى: أبعثها في آخر الليل كالناشط، وهو الثور الوحشي يخرج من أرض إلى أخرى، والمذعور: الخائف وهو كناية عن سريع السير جدًا.
ينظر: ديوانه ص ٢٩، شرح أبيات سيبويه ٢/ ١١٨ وشرح المفصل لابن يعيش: ٨/ ١٣٤، والكتاب ٣/ ٦٢، والمقتضب ٢/ ٥٧.

(٢) قال محمود: «الآية مخصوصة بالمجرمين... الخ» قال أحمد: هذه الآية تتكسر عندها القدرية ولا يمكنهم ترويج حيلة في صرفها عن مقتضى نصها، فإنهم حملوا قوله تعالى: (ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) على التائب، وهو غير ممكن لهم ههنا؛ فإنه قد أثبت التبعيض في العفو، ومحال عندهم أن يكون العفو هنا مقروناً بالتوبة، فإنه يلزم تبعيض التوبة أيضاً. وهي عندهم لا تتبعض. وكذلك نقل الإمام عن أبي هاشم وهو رأس الاعتزال والذي تولى كبره منهم. فلا محمل لها إلا الحق الذي لا مرية فيه، وهو مرد العفو إلى مشيئة الله تعالى غير موقوف على التوبة. وقول الزمخشري: إن الآلام التي تصيب الأطفال والمجانين لها أعواض، وإنما يريد به وجوب العوض على الله تعالى على سياق معتقده، وقد أخطأ في الأصل والفرع؛ لأن المعتزلة وإن أخطأت في إيجاب العوض، فلم تقل بإيجابه في الأطفال والمجانين. ألا ترى أن القاضي أبا بكر ألزمهم ذبح إيلام البهائم والأطفال والمجانين فقال: لا أعواض لها، وليس مترتباً على استحقاق سابق فيحسن، فإنما يتم إلزامه بموافقتهم له على أن لا أعواض لها.

والمصائب باكتسابه. وأنّ ما عفا عنه مولاه أكثر: كان قليل النظر في إحسان ربه إليه. وعن آخر: العبد ملازم للجنايات في كل أوان، وجناياته في طاعاته أكثر من جناياته في معاصيه؛ لأنّ جناية المعصية من وجه وجناية الطاعة من وجوه، والله يطهر عبده من جناياته بأنواع من المصائب؛ ليخفف عنه أثقاله في القيامة، ولولا عفوه ورحمته لهلك في أوّل خطوة، وعن علي رضي الله عنه وقد رفعه: «من عفي عنه في الدنيا عفي عنه في الآخرة ومن عوقب في الدنيا لم تثن عليه العقوبة في الآخرة» (١٣٨٠) وعنه رضي الله

= شعب الإيمان (٧/ ١٥٣): باب في الصبر على المصائب: فصل في ذكر ما في الأوجاع والأمراض والمصيبات من الكفارات، حديث (٩٨١٦)، وهناه في الذهد (١/ ٣٤٩): باب ما جاء في العقوبة في الدنيا حديث (٤٣١). وعبد الرزاق في التفسير (٢/ ١٩٢)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٧٠٦).

وزاد نسبته إلى سعيد بن منصور، وعبد بن حميد وابن المنذر، وابن أبي حاتم كلهم عن الحسن البصري مرسلاً.

أما حديث قتادة:

فقد أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ١٥٠) حديث (٣٠٧٠٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ١٥٢): باب في الصبر على المصائب: فصل في ما في الأوجاع والأمراض والمصيبات من الكفارات، حديث (٩٨١٥).

وذكره السيوطي في الدر المنثور ((٢/ ٧٠٦)، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

وأما حديث البراء:

أورده السيوطي في الجامع الصغير (٥/ ٤٩٢ ـ فيض) حديث (٨٠٨١).

وعزاه لابن عساكر. ورمز لضعفه.

وذكره في الدر المنثور (٥/ ٧٠٦)، وعزاه إلى ابن مردويه، وأورده السيوطي أيضاً في الجامع الصغير (٥/ ٤١٤)، بلفظ: «ما اختلج عرق ولا عين إلاّ بذنب ـ وما يدفع الله أكثر». ورمز لصحته وعزاه إلى الطبراني في الأوسط والضياء، قال الحافظ ابن حجر: أخرجه عبد الرزاق، وابن أبي حاتم من طريق إسماعيل بن سليم عن الحسن والطبري والبيهقي في أواخر الشعب. عن قتادة كلاهما مرسل. ووصله عبد الرزاق من رواية الصلت بن بهرام عن أبي وائل عن البراء رضي الله عنه. انتهى.

١٣٨٠ ـ أخرجه الترمذي (٥/ ١٦): بكتاب الإيمان: باب ما جاء لا يزني الزاني وهو مؤمن، حديث (٢٦٢٦)، وابن ماجه (٢/ ٨٦٨): كتاب الحدود: باب الحد كفارة، حديث (٢٦٠٤)، وأحمد (١/ ٩٩). وأبو يعلى (١/ ٣٥١)، حديث (٤٥٣)، والدارقطني في سننه (٣/ ٢١٥): كتاب الحدود (٣/ ٤٠٣)، و(١/ ٤٥٣)، حديث (٦٠٨). وعبد بن حميد (ص ٥٨): حديث (٨٧). والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٤٥): كتاب التفسير. والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٤٢٣)، حديث (٧١٣٥).

وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف: (٣/ ٢٤١)، وزاد نسبته إلى ابن مردويه، والبزار وإسحاق بن راهويه. قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخان ولم يخرجاه. قال الحافظ ابن حجر: أخرجه ابن ماجه من رواية أبي جحيفة عن علي رفعه. بلفظ: من أصاب ذنباً في الدنيا فعوقب به، فالله أعدل من أن يثني على عبد عقوبته. ومن أذنب ذنباً فستر الله عليه وعفا عنه ـ فالله أكرم من أن يعود في شيء عفا عنه»، ورواه أحمد والبزار والحاكم والدارقطني والبيهقي في الشعب في السابع =

عنه: هذه أرجى آية للمؤمنين في القرآن. ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ بفائتين ما قضي عليكم من المصائب. ﴿مِن رِّجْزٍ﴾ من متول بالرحمة.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾﴾

﴿ٱلْجَوَارِ﴾ السفن. وقرئ «الجوار» ﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ كالجبال. قالت الخنساء [من البسيط]:

كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ[1] ....

وقرئ «الرياح فيظللن» بفتح اللام وكسرها؛ من ظل يظل ويظل، نحو: ضل يضل ويضل[2] ﴿رَوَاكِدَ﴾ ثوابت لا تجري. ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ على ظهر البحر[3]. ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على

= والأربعين. وقال إسحاق في مسنده: أخبرنا عيسى بن يونس عن إسماعيل بن عبد الملك بن أبي الصفراء عن يونس بن حبان عن علي نحوه وفيه انقطاع. انتهى.

---

(١) وإن صخراً لمولانا وسيدنا ... وإن صخراً إذا يشتو لنحار
أغر أبلج تأتم الهداة به ... كأنه علم في رأسه نار

للخنساء ترثي أخاها. ويشتو: أي يدخل في الشتاء، وهو حكاية حال ماضية. ونحار: كثير نحر الإبل للضيفان كناية عن كثرة كرمه. والأغر: الأبيض. والأبلج: الطلق الوجه المعروف. والهداة: جمع هاد: من يتقدم غيره ليدله، والعلم: الجبل: وفي رأسه نار: صفة علم جاءت لترسيخ التشبيه وتقريره، والمبالغة في توضيح المشبه وتشهيره، وعادة دليل الركب: الاهتداء إلى الطريق بالجبال الشامخة، فإذا كان فوقها نار: علم أن أهلها كرام. ويروى:

وإن صخراً لتأتم الهداة به ....

ينظر: ديوانها ص ٣٨٦، جمهرة اللغة ص ٩٤٨، وتاج العروس: (صخر)، ومقاييس اللغة ٤/ ٣٠٩.

(٢) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وليس كما ذكر؛ لأنَّ يضَلُّ بفتح العين من ضَلِلْتُ بكسرها في الماضي، ويضِلُّ بالكسر من ضَلَلْتُ بالفتح، وكلاهما مقيس، يعني: أن كُلاً منهما له أصْلٌ يرجع إليه بخلاف ظَلَّ فإنَّ ماضيه مكسور العين فقط والنون اسمها و«رَوَاكِدَ» خبرها، ويجوز أن يكون ظَلَّ هنا بمعنى صار؛ لأن المعنى ليس على وَقْتِ الظُّلُولِ هو النهار فقط، وهو نظير و«أيْنَ باتَتْ يَدُهُ» من هذه الحَيْثِيَّةِ والرُّكُودُ: الثُّبوتُ والاستقرارُ قال [من الطويل]:

وَقَدْ رَكَدَتْ وَسْطَ السَّمَاءِ نُجُومُهَا ... رُكُوداً بِوَادِي الرَّبْرَبِ المُتَغَرْقِ

وقال الشيخ: ولا يتعيَّنُ أن يكون التقدير أو يعصفها فيغرقن؛ لأنَّ إهْلاكَ السفن لا يتعيَّنُ أن يكون بِعَصْفِ الريح بل قد يهلكها بقَلْعِ لَوْحٍ أو خَسْفٍ. قُلْتُ: والزمخشريُّ لم يذكر أنَّ ذلك متعيَّنٌ، وإنما ذَكَرَ سبباً مناسباً؛ لأنَّ قوله: «يُسْكِنِ الرِّيحَ» يقابلُه يُعْصِفُها فهو في غاية الحُسْنِ والطِّبَاقِ. انتهى. الدر المصون.

(٣) قال محمود: «معناه ثوابت لا تجري على ظهر البحر» قال أحمد: وهم يقولون: إن الريح لم ترد في القرآن إلا عذاباً، بخلاف الرياح. وهذه الآية تخرم الإطلاق، فإن الريح المذكورة هنا نعمة =

بلاء الله ﴿شَكُورٍ﴾ لنعمائه، وهما صفتا المؤمن المخلص، فجعلهما كناية عنه، وهو الذي وكل همته بالنظر في آيات الله، فهو يستملي منها العبر. ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ يهلكهن. والمعنى: أنه إن يشأ يبتلي المسافرين في البحر بإحدى بليتين: إما أن يسكن الريح فيركد الجواري على متن البحر ويمنعهن من الجري، وإما أن يرسل الريح عاصفة فيهلكهن إغراقاً بسبب ما كسبوا من الذنوب. ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ منها، فإن قلت: علام عطف يوبقهن؟ قلت: على يسكن؛ لأنّ المعنى: إن يشأ يسكن الريح فيركدن. أو يعصفها فيغرقن بعصفها. فإن قلت: فما معنى إدخال العفو في حكم الإيباق حيث جزم جزمه؟ قلت: معناه: أو إن يشأ يهلك ناساً وينج ناساً على طريق العفو عنهم. فإن قلت: فمن قرأ «ويعفو»؟ قلت: قد استأنف الكلام.

﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾

فإن قلت: فما وجوه القراءات الثلاث في ﴿وَيَعْلَمَ﴾؟ قلت: أما الجزم فعلى ظاهر العطف، وأما الرفع فعلى الاستئناف، وأما النصب فللعطف على تعليل محذوف تقديره: لينتقم منهم ويعلم الذين يجادلون، ونحوه في العطف على التعليل المحذوف غير عزيز في القرآن، منه قوله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١] وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الجاثية: ٢٢]، وأما قول الزجاج: النصب على إضمار أن؛ لأنّ قبلها جزاء، تقول: ما تصنع أصنع مثله وأكرمك وإن شئت وأكرمك، على تأويل: وأنا أكرمك. وإن شئت وأكرمك جزماً ـ ففيه نظر لما أورده سيبويه في كتابه. قال: واعلم أنّ النصب بالفاء والواو في قوله: إن تأتني آتك وأعطيك: ضعيف، وهو نحو من قوله [من الوافر]:

.... وَأَلْحَقُ بِالْحِجَازِ فَأَسْتَرِيحَا[1]

فهذا يجوز، وليس بحدّ الكلام فيه ولا وجهه، إلا أنه في الجزاء صار أقوى قليلاً؛ لأنه ليس بواجب أنه يفعل، إلا أن يكون من الأوّل فعل، فلما ضارع الذي لا يوجبه كالاستفهام ونحوه: أجازوا فيه هذا على ضعفه، اهـ. ولا يجوز أن تحمل القراءة المستفيضة على وجه ضعيف ليس بحدّ الكلام ولا وجهه، ولو كانت من هذا الباب لما

= ورحمة؛ إذ بواسطتها يسير الله السفن في البحر حتى لو سكنت لركدت السفن، ولا ينكر أن الغالب من ورودها مفردة ما ذكروه. وأما اطراده فلا. وما ورد في الحديث: «اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً.» فلأجل الغالب في الإطلاق، والله أعلم.

(١) تقدم.

أخلى سبيويه منها كتابه، وقد ذكر نظائرها من الآيات المشكلة. فإن قلت: فكيف يصح المعنى على جزم ﴿وَيَعْلَمَ﴾؟ قلت: كأنه قال: أو إن يشأ يجمع بين ثلاثة أمور: هلاك قوم ونجاة قوم وتحذير آخرين. ﴿مِن مَّحِيصٍ﴾ من محيد عن عقابه.

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿ما﴾ الأولى ضمنت معنى الشرط، فجاءت الفاء في جوابها بخلاف الثانية. عن علي رضي الله عنه: اجتمع لأبي بكر رضي الله عنه مال فتصدق به كله في سبيل الله والخير، فلامه المسلمون وخطأه الكافرون، فنزلت.

﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ﴾ عطف على الذين آمنوا، وكذلك ما بعده. ومعنى ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ الكبائر من هذا الجنس. وقرئ «كبير الإثم» عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه: كبير الإثم هو الشرك. ﴿هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أي هم الأخصاء بالغفران في حال الغضب، لا يغول الغضب أحلامهم كما يغول حلوم الناس، والمجيء بهم وإيقاعه مبتدأ، وإسناد ﴿يَغْفِرُونَ﴾ إليه لهذه الفائدة، ومثله: ﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩].

﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾ نزلت في الأنصار: دعاهم الله عز وجل للإيمان به وطاعته، فاستجابوا له بأن آمنوا به وأطاعوه ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وأتموا الصلوات الخمس./ ٢/ ١٦٥أ وكانوا قبل الإسلام وقبل مقدم رسول الله ﷺ المدينة: إذا كان بهم أمر اجتمعوا وتشاوروا، فأثنى الله عليهم، أي: لا ينفردون برأي حتى يجتمعوا عليه. وعن الحسن: «ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمرهم» (١٣٨١) والشورى: مصدر كالفتيا، بمعنى التشاور. ومعنى قوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي ذو شورى، وكذلك قولهم: ترك رسول الله ﷺ وعمر بن الخطاب رضي الله عنه الخلافة شورى.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾

١٣٨١ ـ أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢/ ٨١). باب المشورة وابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٢٩٨): كتاب الأدب باب في المشورة من أمر بها، حديث (٢٦٢٧٥)، وذكره المصنف مرفوعاً في سورة آل عمران وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه ابن أبي شيبة والبخاري في الأدب وعبد الله بن أحمد في زيادات الزهد وقد ذكره المصنف مرفوعاً في آل عمران. انتهى.

هو أن يقتصروا في الانتصار على ما جعله الله لهم ولا يعتدوا. وعن النخعي أنه كان إذا قرأها قال: كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فيجترىء عليهم الفساق. فإن قلت: أهم محمودون على الانتصار؟ قلت: نعم؛ لأنّ من أخذ حقه غير متعد حدّ الله وما أمر به فلم يسرف في القتل إن كان ولي دم أورد على سفيه، محاماة على عرضه وردعا له، فهو مطيع. وكل مطيع محمود.

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠﴾

كلتا الفعلتين: الأولى وجزاؤها سيئة؛ لأنها تسوء من تنزل به. قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ﴾ [النساء: ٧٨]: يريد ما يسوءهم من المصائب والبلايا. والمعنى: أنه يجب إذا قوبلت الإساءة أن تقابل بمثلها من غير زيادة، فإذا قال: أخزاك الله قال: أخزاك الله، ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ﴾ بينه وبين خصمه بالعفو والإغضاء. كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ [فصلت: ٣٤]، ﴿فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ عدة مبهمة لا يقاس أمرها في العظم. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دلالة على أن الانتصار لا يكاد يؤمن فيه تجاوز السيئة[1] والاعتداء خصوصاً في حال الحرد [2]والتهاب الحمية، فربما كان المجازي من الظالمين وهو لا يشعر. وعن النبي ﷺ: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد: من كان له على الله أجر فليقم. قال: فيقوم خلق، فيقال لهم: ما أجركم على الله؟ فيقولون: نحن الذين عفونا عمن ظلمنا، فيقال لهم: ادخلوا الجنة بإذن الله» (١٣٨٢).

١٣٨٢ ـ الحديث مروي عن أنس، وعبد الله بن عمرو، وأبي هريرة وابن عباس، ومحمد بن المنكدر، والحسن. وأما حديث أنس فقد أخرجه: البيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٣١٥) باب في حسن الخلق: فصل في ترك الغضب، حديث (٨٣١٣) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ١٨٧)، والطبراني في مكارم الأخلاق (ص ٣٣١)، والعقيلي في الضعفاء الكبير (٣/ ٤٤٧)، حديث (١٤٩٨)، وذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٢٧٥): كتاب الحدود وغيرها: باب الترغيب في العفو عن القاتل والجافي والظالم... حديث (٣٦٣٢)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٧٠٩)، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم وابن مردويه، قال أبو نعيم: غريب من حديث الحسن، تفرد به الفضل عن غالب. =

---

(١) قال محمود: «فيه دلالة على أن الانتصار لا يكاد يؤمن فيه... الخ» قال أحمد: معنى حسن يجاب به عن قول القائل: لم ذكر هذا عقب العفو مع أن الانتصار ليس بظلم؛ فيشفي غليل السائل ويحصل منه على كل طائل. ومن هذا النمط والله الموفق: قوله تعالى: (وإذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور).

(٢) قوله: «الحرد» في الصحاح: «الحرد» بالتحريك: الغضب. (ع)

﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ﴾

﴿ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ ﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول، وتفسره قراءة من قرأ «بعد ما ظلم» ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ إشارة إلى معنى (من) دون لفظه. ﴿ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾ للمعاقب ولا للعاتب والعائب. ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ يبتدئونهم بالظلم. ﴿ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ يتكبرون فيها ويعلون ويفسدون.

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾

= وفي إسناده الفضل بن يسار قال عنه العقيلي: لا يتابع من وجه يثبت. هذا ويروى بغير هذا الإسناد من وجه أصلح من هذا.

أما حديث عبد الله بن عمرو:

أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٢٦٣) باب في حسن الخلق: فصل في التجاوز والعفو وترك المكافأة، حديث (٨٠٨٦)، وذكره ابن حجر في المطالب العالية (٤/ ٣٩٤): كتاب الفتن: باب شفاعة المؤمنين، حديث (٤٦٦٣)، وعزاه لأبي يعلى، وقال: ضعيف.

وقال البيهقي: هذا متن غريب، وفي إسناده ضعف.

ـ حديث أبي هريرة:

أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٣٢٠) باب في حسن الخلق: فصل في ترك الغضب حديث (٨٣٣٠).

والعقيلي في الضعفاء الكبير (٣/ ٢٦٥): حديث (١٢٧٢).

وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٧٠٩)، وزاد نسبته إلى ابن مردويه. وفيه عمرو بن حمزة القيسي. قال العقيلي: لا يتابع على حديثه.

ـ حديث ابن عباس:

ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٧٠٩) وعزاه إلى ابن مردويه.

والزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٢٤٣)، وزاد نسبته إلى الثعلبي.

ـ حديث الحسن:

ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٧٠٩)، وعزاه إلى ابن مردويه.

ـ حديث محمد بن المنكدر:

ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٧٠٩)، وعزاه إلى ابن المنذر وسعيد بن منصور».

وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه العقيلي والطبراني في مكارم الأخلاق وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الشعب في السابع والخمسين كلهم من طريق الفضل بن يسار عن غالب العطار عن الحسن بن أنس رفعه. قال: «إذا وقف العبد للحساب ينادي مناد: من كان أجره على الله فليدخل الجنة... الحديث»، وله طريق أخرى عند الثعلبي من رواية زهير بن عباد عن ابن عيينة عن عمرو عن ابن عباس. وأخرى عن البيهقي من رواية الثوري عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أتم منه ـ قال البيهقي: المتن غريب ـ والإسناد ضعيف. انتهى.

﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ على الظلم والأذى ﴿وَغَفَرَ﴾ ولم ينتصر وفوّض أمره إلى الله ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ منه ﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ وحذف الراجع لأنه مفهوم، كما حذف من قولهم: السمن منوان بدرهم. ويحكى أن رجلاً سب رجلاً في مجلس الحسن رحمه الله، فكان المسبوب يكظم، ويعرق فيمسح العرق، ثم قام فتلا هذه الآية، فقال الحسن: عقلها والله وفهمها إذ ضيعها الجاهلون. وقالوا: العفو مندوب إليه، ثم الأمر قد ينعكس في بعض الأحوال، فيرجع ترك العفو مندوباً إليه، وذلك إذا احتيج إلى كف زيادة البغي، وقطع مادة الأذى. وعن النبي ﷺ ما يدل عليه وهو: أن زينب أسمعت عائشة بحضرته، وكان ينهاها فلا تنتهي، فقال لعائشة: «دونك فانتصري» (١٣٨٣).

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾﴾

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ ومن يخذله الله[1] ﴿فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ فليس له من ناصر يتولاه من بعد خذلانه.

١٣٨٣ ـ أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص ١٦٤): الجزء الرابع باب من انتصر من بعد ظلمه. حديث (٥٥٨).

وأبو داود (٢/ ٢٧٥): كتاب الأدب: باب الانتصار حديث (٤٨٩٨).

والنسائي في السنن الكبرى (٥/ ٢٨١) كتاب عشرة النساء: باب حب الرجل نساءه أكثر من بعض، حديث (٨٨٩٢)، (٨٨٩٣)، (٨٨٩٤)، وفي التفسير (٢/ ٢٦٩)، حديث (٤٩٦)، وابن ماجه (١/ ٦٣٧): كتاب النكاح: باب حسن المعاشرة (١٩٨١). وأحمد في مسنده (٦/ ٩٣). وابن جرير الطبري (١١/ ١٥٦)، حديث (٣٠٧٢٩).

وذكره الهيثمي في «المجمع» (٤/ ٣٢٤) لكنه جعل مكان زينت بنت جحش أم سلمة ـ وقال: رواه أبو داود غير أنه جعل مكان أم سلمة زينب بنت جحش، وذكره ابن كثير في تفسيره (٤/ ١١٩).

وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٧٠٨)، وزاد نسبته إلى ابن مردويه. وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٢٤٤)، وزاد نسبته إلى ابن عدي في الكامل، وابن أبي شيبة في مسنده.

قال الهيثمي: رواه أحمد، وفيه علي بن زيد وفيه ضعف.

قال الحافظ ابن حجر: أخرجه النسائي من رواية خالد بن مسلمة عن عروة عن عائشة قالت: ما علمت حتى دخلت على زينب بغير إذن وهي بمعنى. فذكر نحوه. ولم يذكر فيه النهي. ولفظه: ودخل علي رسول الله ـ ﷺ ـ وعندنا زينب بنت جحش ـ إلى أن قال: فأقبلت زينب هجم لعائشة فنهاها رسول الله ـ ﷺ ـ فأبت أن تنتهي. قال: لعائشة سبيها فسبتها فغلبتها». انتهى.

---

(١) قوله: «ومن يخذل الله فما له من ولي» تأويل على مذهب المعتزلة: أنه تعالى لا يخلق الشر. وعند أهل السنة: يخلقه كالخير، فالإضلال خلق الضلال. ومن بعده: أي من بعد إضلاله. (ع)

﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾

﴿خَٰشِعِينَ﴾ متضائلين متقاصرين مما يلحقهم ﴿مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ وقد يعلق ﴿مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ﴾، ويوقف على ﴿خَٰشِعِينَ﴾ ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أي يبتدئ نظرهم من تحريك لأجفانهم ضعيف خفي بمسارقة، كما ترى المصبور ينظر إلى السيف.(١) وهكذا نظر الناظر إلى المكاره: لا يقدر أن يفتح أجفانه عليها ويملأ عينيه منها، كما يفعل في نظره إلى المحاب. وقيل: يحشرون عمياً فلا ينظرون إلا بقلوبهم. وذلك نظر من طرف خفي. وفيه تعسف. ﴿يَوْمَ﴾ إما أن يتعلق بخسروا، ويكون قول المؤمنين واقعاً في الدنيا، وإما أن يتعلق بقال، أي: يقولون يوم القيامة إذا رأوهم على تلك الصفة.

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾

﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ «من» صلة «لا مردّ»، أي: لا يرده الله بعدما حكم به. أو من صلة يأتي، أي: من قبل أن يأتي من الله يوم لا يقدر أحد على ردّه. والنكير: الإنكار، أي: ما لكم من مخلص من العذاب ولا تقدرون ٢/ ١٦٥ب أن تنكروا شيئاً مما اقترفتموه ودوّن في صحائف أعمالكم.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾

أراد بالإنسان الجمع لا الواحد؛ لقوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ ولم يرد إلا المجرمين؛ لأن إصابة السيئة بما قدّمت أيديهم إنما تستقيم فيهم. والرحمة: النعمة من الصحة والغنى والأمن. والسيئة: البلاء من المرض والفقر والمخاوف. والكفور: البليغ الكفران، ولم يقل: فإنه كفور؛ ليسجل على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعم(٢)، كما قال: ﴿إِنَّ

---

(١) قوله: «كما ترى المصبور ينظر إلى السيف» أي: المحبوس للقتل. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قال محمود: «لم يقل: فإنه كفور؛ ليسجل على هذا الجنس أنه موسوم بكفران النعم... الخ» قال أحمد: وقد أغفل هذه النكتة بعينها في الآية التي قبل هذه، وهي قوله تعالى: (وقال الذين آمنوا إن =

﴿ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾ [العاديات: ٦] والمعنى أنه يذكر البلاء وينسى النعم ويغمطها[1].

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝٥٠﴾

لما ذكر إذاقة الإنسان الرحمة وإصابته بضدّها: أتبع ذلك أنّ له الملك وأنه يقسم النعمة والبلاء كيف أراد، ويهب لعباده من الأولاد ما تقتضيه مشيئته، فيخص بعضاً بالإناث وبعضاً بالذكور، وبعضاً بالصنفين جميعاً، ويعقم آخرين فلا يهب لهم ولداً قط. فإن قلت: لم قدّم الإناث أوّلاً على الذكور مع تقدّمهم عليهنّ، ثم رجع فقدّمهم، ولم عرف الذكور بعد ما نكر الإناث؟ قلت: لأنه ذكر البلاء في آخر الآية الأولى وكفران الإنسان بنسيانه الرحمة السابقة عنده، ثم عقبه بذكر ملكه ومشيئته وذكر قسمة الأولاد، فقدم الإناث، لأنّ سياق الكلام أنه فاعل ما يشاؤه لا ما يشاؤه الإنسان، فكان ذكر الإناث اللاتي من جملة ما لا يشاؤه الإنسان أهم، والأهم واجب التقديم، وليلي الجنس الذي كانت العرب تعدّه بلاء ذكر البلاء، وأخر الذكور فلما أخرهم لذلك تدارك تأخيرهم ـ وهم أحقاء بالتقديم ـ بتعريفهم؛ لأن التعريف تنويه وتشهير، كأنه قال: ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين الذين لا يخفون عليكم، ثم أعطى بعد ذلك كلا الجنسين حقه من التقديم والتأخير، وعرّف أن تقديمهنّ لم يكن لتقدمهنّ، ولكن لمقتض آخر فقال: ﴿ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ كما قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات: ١٣]، ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣٩﴾ [القيامة: ٣٩] وقيل: نزلت في الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، حيث وهب لشعيب ولوط إناثاً، ولإبراهيم ذكوراً، ولمحمد ذكوراً وإناثاً، وجعل يحيى وعيسى عقيمين. ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ﴾ بمصالح العباد، ﴿قَدِيرٌ﴾ على تكوين ما يصلحهم.

﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٥١﴾

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ وما صح لأحد من البشر ﴿أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا﴾ على ثلاثة أوجه: إما

= الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا إن الظالمين في عذاب مقيم) فوضع الظالمين موضع الضمير الذي كان من حقه أن يعود على اسم إن، فيقال: ألا إنهم في عذاب مقيم، فأتى هذا الظاهر تسجيلاً عليهم بلسان ظلمهم.

(١) قوله: «وينسى النعم ويغمطها» يبطرها ويحقرها. أفاده الصحاح. (ع)

على طريق الوحي وهو الإلهام والقذف في القلب أو المنام، كما أوحى إلى أم موسى وإلى إبراهيم عليه السلام في ذبح ولده. وعن مجاهد: أوحى الله الزبور إلى داود عليه السلام في صدره. قال عبيدة بن الأبرص [من الطويل]:

وَأَوْحَى إِلَيَّ اللَّهُ أَنْ قَدْ تَأَمَّرُوا بِإِبْلِ أَبِي أَوْفَى فَقُمْتُ عَلَى رِجْلِ[1]

أي: ألهمني وقذف في قلبي. وإما على أن يسمعه كلامه الذي يخلقه في بعض الأجرام، من غير أن يبصر السامع من يكلمه؛ لأنه في ذاته غير مرئي[2]. وقوله: ﴿مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ مثل أي، كما يكلم الملك المحتجب بعض خواصه وهو من وراء الحجاب، فيسمع صوته ولا يرى شخصه، وذلك كما كلم موسى ويكلم الملائكة. وإما على أن يرسل إليه رسولاً من الملائكة فيوحي الملك إليه كما كلم الأنبياء غير موسى. وقيل: وحيًا كما أوحى إلى الرسل بواسطة الملائكة. ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ أي نبيًا كما كلم أمم الأنبياء على ألسنتهم. و﴿وَحْيًا﴾، و﴿أن يرسل﴾: مصدران واقعان موقع الحال؛ لأنّ ﴿أن يرسل﴾، في معنى إرسالاً. ومن وراء حجاب: ظرف واقع موقع الحال أيضاً، كقوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١] والتقدير: وما صح أن يكلم أحداً إلا موحياً، أو مسمعاً من وراء حجاب، أو مرسلاً. ويجوز أن يكون ﴿وَحْيًا﴾، موضوعاً موضع: كلاماً؛ لأنّ الوحي كلام خفي في سرعة، كما تقول: لا أكلمه إلا جهراً وإلا خفاتًا؛ لأنّ الجهر والخفات ضربان من الكلام، وكذلك إرسالاً: جعل الكلام على لسان الرسول بغير واسطة، تقول: قلت لفلان كذا، وإنما قاله وكيلك أو رسولك. وقوله: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ معناه: أو إسماعاً من وراء حجاب؛ ومن جعل ﴿وَحْيًا﴾ في معنى: أن يوحي، وعطف ﴿يُرْسِلَ﴾ عليه، على معنى ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ أي: إلا بأن يوحي. أو بأن يرسل، فعليه أن يقدر قوله: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ تقديراً يطابقهما عليه، نحو: أو أن يسمع[3] من وراء حجاب. وقرئ ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ﴾ بالرفع، على: أو هو يرسل. أو بمعنى مرسلاً عطفاً على ﴿وَحْيًا﴾ في معنى موحياً. وروي أنّ اليهود ٢/١٦٦أ قالت للنبيﷺ:

---

(١) أي ألهمني الله وألقى في قلبي: أنهم تأمروا. وأن مخففة من الثقيلة، واسمها: ضمير القوم أو الحال والشأن. واختار أبو حيان أنها لا اسم لها إذا خففت؛ لأنها مهملة. وإن ضمن «أوحى» معنى: قال: فإن تفسيرية، أي، قد تآمروا بوزن تفاعلوا، أي: تشاوروا في الأمر، أو أجمعوا أمرهم. ومنه (يأتمرون بك ليقتلوك) بإبل أبي أوفى ليغتصبوها، فقمت في طلبهم لأردها على رجل واحدة، أي: بسرعة، فلا أضع رجلي معاً في الأرض.

(٢) قوله: «لأنه في ذاته غير مرئي» أي: لا تجوز رؤيته. وهذا عند المعتزلة. أما عند أهل السنة فتجوز كما تقرر في محله. (ع)

(٣) قوله: «أو أن يسمع من وراء حجاب» لعله: أو بأن. (ع)

ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبيًا كما كلمه موسى ونظر إليه، فإنا لن نؤمن لك حتى تفعل ذلك، فقال: لم ينظر موسى إلى الله (١٣٨٤)، فنزلت. وعن عائشة رضي الله عنها: من زعم أنّ محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية (١٣٨٥)، ثم قالت: أو لم تسمعوا ربكم يقول: فتلت هذه الآية: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ﴾ عن صفات المخلوقين ﴿حَكِيمٌ﴾ يجري أفعاله على موجب الحكمة، فيكلم تارة بواسطة، وأخرى بغير واسطة: إما إلهاماً، وإما خطاباً.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾

﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ﴾ يريد: ما أوحي إليه؛ لأن الخلق يحيون به في دينهم كما يحيى الجسد بالروح. فإن قلت: قد علم أن رسول الله[1] ﷺ: ما كان يدري ما القرآن قبل نزوله

١٣٨٤ ـ قال: الحافظ ابن حجر: لم أجده. انتهى.

١٣٨٥ ـ أخرجه البخاري في صحيحه (٦/٤٥٩): كتاب بدء الخلق: باب إذا قال أحدكم: آمين، والملائكة في السماء فوافقت إحداهما... حديث (٣٢٣٤) من طريق محمد بن عبد الله بن إسماعيل حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري عن ابن عون أنبأنا القاسم عن عائشة.
وأخرجه البخاري (٩/٥٨٧): كتاب التفسير: باب ـ والنجم، حديث (٤٨٥٥). =

---

(١) قال محمود: «فإن قلت: قد علم أن النبي عليه الصلاة والسلام ما كان يدري الكتاب قبل الوحي... الخ» قال أحمد: لما كان معتقد الزمخشري أن الإيمان اسم التصديق مضافاً إليه كثير من الطاعات فعلاً وتركًا حتى لا يتناول الموحد العاصي ولو بكبيرة واحدة اسم الإيمان ولا يناله وعد المؤمنين. وتفطن لإمكان الاستدلال على صحة معتقده بهذه الآية: عدها فرصة لينتهزها وغنيمة. ليحرزها، وأبعد الظن بإيراده مذهب أهل السنة على صورة السؤال ليجيب عنه بمقتضى معتقده، فكأنه يقول: لو كان الإيمان وهو مجرد التوحيد والتصديق كما قول أهل السنة، للزم أن ينفى عن النبي عليه الصلاة والسلام قبل المبعث بهذه الآية كونه مصدقًا، ولما كان التصديق ثابتًا للنبي عليه الصلاة والسلام قبل البعث باتفاق الفريقين: لزم أن لا يكون الإيمان المنفي في الآية عبارة عما اتفق على ثبوته، وحينئذ يتعين صرفه إلى مجموع أشياء: من جملتها التصديق، ومن جملتها كثير من الطاعات التي لم تعلم إلا بالوحي، وحينئذ يستقيم نفيه قبل البعث. وهذا الذي طمع فيه: يخرط القتاد، ولا يبلغ منه ما أراد. وذلك أن أهل السنة وإن قالوا: إن الإيمان هو التصديق خاصة حتى يتصف به كل موحد وإن كان فاسقًا ـ يخصون التصديق بالله وبرسوله، فالنبي عليه الصلاة والسلام مخاطب في الإيمان بالتصديق برسالة نفسه، كما أن أمته مخاطبون بتصديقه، ولا شك أنه قبل الوحي لم يكن يعلم أنه رسول الله، وما علم ذلك إلا بالوحي، وإذا كان الإيمان عند أهل السنة هو التصديق بالله ورسوله، ولم يكن هذا المجموع ثابتًا قبل الوحي، بل كان الثابت هو التصديق بالله تعالى خاصة: استقام نفي الإيمان قبل الوحي على هذه الطريقة الواضحة، والله أعلم.

عليه؛ فما معنى قوله: ﴿وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ والأنبياء لا يجوز عليهم إذا عقلوا وتمكنوا من النظر والاستدلال أن يخطئهم الإيمان بالله وتوحيده، ويجب أن يكونوا معصومين من ارتكاب الكبائر ومن الصغائر التي فيها تنفير قبل المبعث وبعده، فكيف لا يعصمون من الكفر؟ قلت: الإيمان اسم يتناول أشياء: بعضها الطريق إليه العقل، وبعضها الطريق إليه السمع، فعنى به ما الطريق إليه السمع دون العقل؛ وذاك ما كان له فيه علم حتى كسبه بالوحي. ألا ترى أنه قد فسر الإيمان في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] بالصلاة؛ لأنها بعض ما يتناوله الإيمان. ﴿مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ من له لطف ومن لا لطف له، فلا هداية تجدي عليه. ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ بدل. وقرئ «لِتُهْدَى» أي: يهديك الله. وقرئ «لتدعو».

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾ **كان ممن تصلي عليه الملائكة ويستغفرون له ويسترحمون له**» (١٣٨٦).

= وفي (١٥/ ٣١١) كتاب التوحيد: باب قوله تعالى: «عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدًا» حديث (٧٣٨٠). ومسلم في صحيحه (٢/ ٩): كتاب الإيمان: باب قول الله عز وجل: ولقد رآه، حديث (٢٨٩) (١٧٧) وأحمد في مسنده (٦/ ٤٩).

من طريق إسماعيل بن خالد عن عامر الشعبي، به.

وأخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ٤٥٩): كتاب بدء الخلق: باب: إذا قال أحدكم: آمين، والملائكة في السماء... حديث (٣٢٣٥).

ومسلم في صحيحه (٢/ ٩): كتاب الإيمان، باب معنى قوله تعالى: ولقد رآه، حديث (٢٩٠) (١٧٧).

من طريق أبي أسامة حدثنا زكريا بن أبي زائدة عن ابن الأشوع، عن الشعبي، به.

وأخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ٨): كتاب الإيمان: باب ولقد رآه، حديث (١٧٧). والترمذي في سننه (٥/ ٢٦٢): كتاب تفسير القرآن: باب ومن سورة الأنعام، حديث (٣٠٦٨) والطبري في تفسيره (١١/ ٥١٢ ـ ٥١٣). حديث برقم (٣٢٤٧٥). (٣٢٤٧٦). (٣٢٤٧٧). (٣٢٤٧٨)، (٣٢٤٧٩).

وابن حبان في صحيحه (١/ ٢٥٧): كتاب الإسراء: باب ذكر تعداد عائشة قول ابن عباس الذي ذكرناه من أعظم الفرية، حديث (٦٠)، وأبو يعلى الموصلي في مسنده (٨/ ٣٠٣)، حديث برقم (٤٩٠٠).

كلهم من طريق داود بن أبي هند عن عامر الشعبي عن مسروق عن عائشة به.

وقال الحافظ: متفق عليه وقد تقدم طرف منه في الأنعام. انتهى.

١٣٨٦ ـ تقدم برقم (٣٤٦)، وهو حديث فضائل القرآن سورة سورة الموضوع على رسول الله ﷺ.

وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه الثعلبي وابن مردويه بإسنادهما إلى أبي بن كعب. انتهى.